

البَابُ الْخَامِسُ

سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب

ان الله تعالى يبعث لهذه الامة في كل قرن من يجدد لها أمر دينها ، ويدعو الى واضح السبيل ومستبينها ، كي لا تبطل حجج الله وبيئاته .. فكل عصر يمتاز فيه عالم بذلك ، يدعو الى تلك المناهج والمسالك وليس من شرطه ان يقبل منه ويستجاب ، ولا ان يكون معصوماً في كل ما يقول ، فان هذا لم يثبت لاحد دون الرسول . ولهذا المجدد علامة ، يعرفها المتوسمون ، وينكرها المبطلون ، اوضحها واجلاها : محبة الرعيل الاول من هذه الامة والعلم بما كانوا عليه من اصول الدين .. رأسها الاكبر الجليل : معرفة الله .. وقد اختصمكم الله تعالى . من نعمة الايمان والتوحيد بخالصة ، ومن عليكم بنة عظيمة صالحة من بين سائر الامم واصناف الناس في هذه الازمان ، فأتاح لكم من احبار الامة وعلماؤها :
حبراً جليلاً ، وعلماً نبيلاً ، فقيهاً عارفاً بما كان عليه الصدر الاول ، خبيراً بما انحل من عرى الاسلام وتحول ، فتجرد الى الدعوة الى الله ورد الناس الى ما كان عليه السلف .. ومركب التعلق على غير الله من الأنبياء والصالحين وعبادتهم والاعتقاد في الأحجار والأشجار والعيون والمغار ..
« من رسالة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ ، الى الامام فيصل »

الفصل الأول

ولادة الشيخ وأسرته ونسبه وتعليمه

رؤيا سليمان

لا تخلو سير العظماء ، أو سير أكثرهم ، من أسطورة أو رؤيا ... يجعلونها بين يدي ولادتهم ، أو في أول طفولتهم ، كأنها تبشير أو إرهاب ... بما سيكون لهم من شأن !

وأنت تجد في الكتب الغربية ، التي تبحث في تاريخ نجد والحركة الوهابية ، قصة رؤيا رآها الشيخ -سليمان بن علي آل مشرف تبشر بمجيء ولد من صلبه ، يغير معتقدات أهل نجد !

وقد بدا لنا أن نتبع هذه القصة في مصادرها الأولى ، فثبت لنا أن أول من نشرها في الغرب ، هو المؤرخ الفرنسي « كورانسيه » ، ولعله قرأها في تقرير أرسله « جان ريمون » عام ١٨٠٦ م . من بغداد إلى الامبراطور نابوليون . قال كورانسيه :

« هناك قصة منتشرة بين النجديين ، وهي أن الشيخ سليمان بن علي ، رأى فيما يرى النائم أن شعلة خرجت من بدنه وانتشرت في الصحراء فأحرقت خيامها ، ومضت إلى المدن فدمرت دورها .

وقد سأل سليمان بعض العارفين أن يفسروا له رؤياه ، فقالوا له : سيولد لك ولد ، يكون له في الدنيا شأن عظيم ومقام كريم ، يبطل معتقدات أهل نجد وعاداتهم ، ويدعو إلى الدين الحق .

... وتحقق هذا الحلم ، في حفيده محمد بن عبد الوهاب !
كان لقصة هذا الحلم دوي كبير ، وتناقلها كثير من المؤرخين والرحالة الأوربيين في صيغ مختلفة ، ويزعم « ملت بورن » أن أهل نجد ما صدقوا الشيخ محمد وتابعوه إلا بسبب هذا الحلم !
أما الكاتب الفرنسي دونارسيا - وهو من أوائل الفرنسيين الذين كتبوا عن الوهابية - فيقول :

« إن أحداً لا يصدق أن هذا الحلم ... هو الذي حمل الشيخ على الدعوة إلى التوحيد ، أو كان ذا أثر في إقبال الناس على دعوته .
وأكبر الظن أن هذه القصة إنما وضعت بعد انتصار الشيخ ، وكانت « محاولة ساذجة » ، لتفسير نجاحه العظيم .
وفي اعتقادنا أن هذه القصة ، وإن تكن موضوعة ، جديرة بأن يشار إليها ، لكثرة المؤرخين الغربيين الذين تناقلوها ، ولأنها ... سمعت قديماً في مجالس بغداد !
وهي ، بعد ذلك ، حلم ... لا يترتب عليه حكم !

ولادة محمد بن عبد الوهاب

كانت (العيينة) أجمل بلدان نجد وأغناها ، وكان عدد سكانها خمسة وعشرين ألفاً .

وكان في العيينة بيتان رفيعان : بيت الإمارة ، أسرة آل معمر ، وبيت الزعامة الدينية والعلم : أسرة آل مشرف .

وآل مشرف من بيت الرئاسة في بني تميم ، فنسبهم عريق ، ومجدهم قديم ، ولهم في الجاهلية وأول الإسلام مفاخر لا تحصى ؛ ولكنهم جمعوا إلى النسب ، فضيلة العلم والدين والصلاح ، فقيمهم العلماء الفقهاء ، ومنهم المفتون والقضاة ، كان

العلم يجري في دمائهم ، فهم يتوارثونه كبراً عن كبر ، وقد عرف التاريخ ، في الشرق والغرب ، أسراً ، كآسرة آل مشرف ، كان ينبغ فيها الأطباء أو القضاة أو الشعراء ، جيلاً بعد جيل ، والله سبحانه يختص بنعمته وبركته من يشاء !

وفي عام ١١١٥ هـ . بُشِّرَ الفقيه العالم ، الشيخ عبد الوهاب بن سليمان آل مشرف بولادة ابن له ، فسماه (محمداً) ، تيمناً باسم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يرجو أن يصبح ابنه ، متى كبر ، عالماً وقاضياً مثله ... ولكن القدر أعدّه لمقام أعظم من ذلك كثيراً !^(١)

١ - يقول زيني بن دحلان ان ولادة الشيخ كانت عام ١١١١ هـ . وتقول لادي بلنت انه ولد عام ١١٠٣ هـ . ولكننا اخترنا سنة ١١١٥ هـ . اتباعاً لمؤرخ الشيخ (ابن خنم) ، فهو أعلم منهما بذلك .

ويذكر ابن بشر ان السلطان العثماني (مصطفى) خلع في نفس السنة التي ولد فيها محمد بن عبد الوهاب ، وتولى مكانه اخوه السلطان (احمد الثالث) .

والحق ان تلك السنة كانت نعمة على تركيا ونجد . أما نجد فسوف ينقلها وليد هذا العام من الظلمات الى النور . وأما تركيا فقد تخلصت من سلطان مدمن للخمر ، منحل في الرذيلة ، وقولها سلطان محب للعلم والأدب ، أنشأ أول مطبعة في مدينة استانبول ، واستطاع قهر الروس الذين ظمعوها في اغتصاب جزء من ممتلكاته !

والد الشيخ : عبد الوهاب بن سليمان

كان عبد الوهاب عالماً فقيهاً ، وإن لم يبلغ درجة أبيه سليمان ، ويقول الفقيه إنه كان « مثالاً للعدل والفضل ، وألف عدة رسائل في الفقه والتفسير ، وكان مشهوراً عند الناس بالتواضع وسهولة الأخلاق ، وكرم الطباع ولين العريكة ، وكان يقرأ لطلاب العلم في مسجد العيينة دروساً في الفقه والتفسير والحديث . » وفي عام ١١٣٨ هـ . وقع في العيينة الرباء المشهور الذي أفنى غالب أهلها ، ومات فيه أميرها الذي لم يكن أحد يضاهيه في نجد - في الرياسة وقوة الملك والعدد والعدة والعقارات والأثاث - وتولى بعده حفيده الملقب بجرفاش ، فوقع اختلاف بينه وبين عبد الوهاب ، فعزله عن القضاء ، فانتقل عبد الوهاب ، عام ١١٣٩ هـ . ، إلى حريملا ، وتولى قضاءها ، وبقي مقيماً فيها حتى وفاته ، عام ١١٥٣ هـ .

وخلال ذلك ، عاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب من رحلته الطويلة إلى نجد ، فأقام عند أبيه في حريملا ، وكان يدعو إلى التوحيد وينكر ما تفعله العامة من الشرك والبدع ، قال ابن بشر : « وكثر منه الإنكار لذلك ولجميع المخطورات ، حتى وقع بينه وبين أبيه كلام وكذلك وقع بينه وبين الناس في البلد . »
ويزعم المؤرخ الفرنسي « ميشو » أن عبد الوهاب كان يتعاطى أو يترخص في نوع من الربا ، وأن ذلك كان سبب عزله من القضاء ، ثم كان سر الخلاف

بينه وبين ابنه ، وهذه التهمة ، فيما نعتقد ، محض افتراء ، فالخلاف الذي قام بين الشيخ وأبيه ليس أكثر من مظهر من مظاهر حب الأب الشديد لولده وخوفه عليه من انتقام الأمراء وعداوة الرؤساء ، فكان يأمره بالاعتدال والقصد ، وأخلاق عبد الوهاب كانت فوق مستوى الشبهات ، يشهد له بذلك رجال عرفوا بخصومتهم للحركة الوهابية ، كابن دحلان ، الذي وصف عبد الوهاب بأنه « من العلماء الصالحين » ، وربما مدح الأب ، لينال من الابن ، والله أعلم .

ويقول جان ريمون ، في تقريره إلى الامبراطور نابوليون : « كان عبد الوهاب يعتقد نفس الأفكار التي يدعو إليها ابنه ، ولكنه كان كثير الخوف على نفسه وولده ، فما كان يحب أن يعرف عنه ذلك . » (١)

١ - يقول فيليبي : (لقد قيل ان الوالد عمد كثيراً من المرات الى حد جموح ذلك الشاب الذي كانت حماسه للعمل في سبيل الله ... في مجتمع غير مستعد لقبول فكرة ترك الحياة السهلة . فانت مراعاة احكام الاسلام صفة لجميع اولئك الذين يحترمون انفسهم في نجد ... الا انهم كانوا يشفقون على الجهلة ... ويرخصون في تطبيق الشائثر الاسلامية .)

جده : سليمان بن علي

كان جده ، سليمان بن علي ، قاضي العيينة في زمن عبدالله بن معمر ، ^(١) وكان أعلم رجال نجد وأفقههم ، بل كان مرجعهم في الفقه الحنبلي ، يأتي إليه الناس من الأماكن البعيدة لأخذ العلم عنه ، ويكاتبونه ليظفروا منه بالفتاوى الرشيدة والأجوبة السديدة ، على مسائل استعصى على العلماء الآخرين حلها !

ويقول « الفقي » إن الشيخ سليمان اشتهر ، فوق علمه وخلقه ، بكثرة البذل وإكرام الفقراء من طلبة العلم وغيرهم من الوافدين إليه ، وكانت تطمح إليه أنظار طلاب العلم والفقه الحنبلي ، وتلمذ له أكثر علماء نجد في علمي التفسير والحديث ، وكان لشدة شغفه بنشر العلم وتعليمه ، يؤوي طلاب العلم وفقراء التلاميذ في داره وينفق عليهم من خالص ماله ، وكان ذا هيئة وتفوذ لدى الولاة والأمراء في مختلف جهات نجد ، فكان ملاذاً وملجأ لكل المظلومين .

ويقول ابن بشر إن الشيخ سليمان ، المتوفى عام « ١٠٧٩ هـ » ، كان « فقيه زمانه » متبحراً في علوم المذهب ، وانتهت إليه الرياسة في العلم ، « .. وأخذ عنه جماعة ، منهم ابنه عبد الوهاب .. »

« .. رأيت له سؤالات عديدة وجوابات كثيرة وصنف كتاباً في « المناسك » . وذكر لي أنه شرح « الإقناع » ، فلما علم أن منصوراً البهوتي ، شرحه ، أثلف

١ - ذكر ابن بشر لسابقته في عام « ١٠٧٢ هـ » أن أمير العيينة عبد الله بن معمر سار في عسكره الى قرية البير ومعه القاضي سليمان بن علي .

سليمان شرحه ، !

ويستدل « فيلي » ، بهذه الحادثة ، على أن سليمان كان ذا شخصية فذة !
وعندنا ، أن هذا العمل إنما يدل على عظمة الشيخ البهوتي وجلالة قدره في نفس
سليمان ، فقد كان الشيخ البهوتي أكبر علماء الحنابلة في زمانه ، وينقل ابن بشر
نفسه عن بعض المشايخ القدامى أنهم كانوا يقولون : « كل ما وضعه متأخرو
الحنابلة من الحواشي على أولئك المتون - يعنون الإقناع والمنتهى - ليس عليه
معول ، إلا ما وضعه الشيخ منصور ، لأنه هو المحقق لذلك ، إلا حاشية البهوتي ،
لأن فيها فوائد جلية » .

نسب الشيخ

آل مشرف

كانت أسرة الشيخ {محمد بن عبد الوهاب تعرف ، في زمانه ، باسم «آل مشرف» .

وبين الشيخ ، وبين مشرف ، رأس الأسرة ، تسعة آباء ، فهو :
« محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد
ابن محمد بن بريد بن مشرف . »^(١)

الوهبة

وقبل مشرف ، كانت الأسرة تعرف باسم « الوَهْبَة » نسبة إلى وهيب .
ومنها : (آل ثاني) ، أمراء قطر .^(٢)
وقد ساق لنا ابن بشر أسماء آباء « مشرف » ، حتى « وهيب » ، على النحو
التالي :

« مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب »

١ - واسط (ابن بشر) من السلسلة اسمي (بريد بن محمد) وتابعه في ذلك عدد من المؤلفين .

٢ - عمر رضا كحالة : معجم القبائل العربية .

زيد مناة

وينتمي الروبة إلى زيد مناة بن تميم .
وتورد لنا كتب الأنساب أسماء آباء وهيب حتى زيد مناة ، على النحو الآتي :
« وهيب بن قاسم بن موسى بن مسعود بن عقبة بن منيع بن نخل بن شداد
ابن زهير بن شهاب بن ربيعة بن أبي مسعود بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد
مناة بن تميم » (١) .

التقاؤه بنسب النبي محمد (ص)

يذكر النسابون أن تميم هو : « تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر
ابن نزار بن معد بن عدنان » .
وسواء أكانت هذه السلسلة كاملة الحلقات ، أم لم تكن كاملة ، فإن النسابين
يجمعون على أن تميم من ذرية « إلياس بن مضر » ، وبذلك يلتقي الشيخ محمد بالنبي
محمد (ص) . في جدتهما الأعلى المشترك : « إلياس بن مضر » .

بنو تميم

إذا خرجنا من دائرة الأسر والبطون ، وجدنا الشيخ ينتمي إلى قبيلة
(بني تميم) أو (تميم) اختصاراً ، وهي من أقوى قبائل مضر ، العدنانية ،
وأكثرها عدداً ، وأشهرها في التاريخ .
يقول الفرزدق :

(ترى الناس ما سرنا يسبيرون خلفنا

وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا)

١ - انظر كتاب « الكتاب المنتخب في ذكر قبائل العرب » للفيدي ، وقد اخطأ مؤلف
الكتاب بزعمه أن زيد هو ابن مناة ، وإنما هو شخص واحد : فقد جاء في كتاب « الاصنام »
لابن الكلبي : « تميم بن مر ، سمي ابنه : « زيد مناة » . » ، كما يقال « تميم اللات » مثلاً . وهذا
شيء معروف !

وهناك البيت المشهور :

(إذا غضبت عليك بنو تميم

حسبت الناس كلهم غضاباً !) .

هكذا كانت تميم في مرحلة البداوة ، تسيروا في الناس خلفها ، وتغضب فتغضب الدنيا كلها !

ثم تكاثرت تميم ، ونحضر ، وتفرقت بين الأسر ، وتوزعت بين البلدان ، ولم تعد لها « نخوة » عامة يلتقي عليها أفرادها في الحروب والنوازل .^(١)

صفات بني تميم

يقول « بركارت » في كتابه « مواد لتاريخ الوهابيين » :

« كان عبد الوهاب من بني تميم ، وكلهم ، تقريباً ، زراع ... وأهم مساكنهم ، في نجد : الحوطة ، على بعد أميال كثيرة على الأقدام من الدرعية . وتوجد جالية ثانية من تميم ، هاجرت من الحوطة إلى قفار في جبل شمر ، خوفاً من النار والدم .

وهناك جالية ثالثة ، نزلت في حمى والي بغداد ، في القرى القائمة بين (الحلة) و (مشهد علي) .

وقد اشتهر رجال بني تميم بطول قاماتهم ، وضخامة هاماتهم ، ولحاهم الكثنة ، وبذلك يتميزون من سائر البدو ..

١ - يقول عمر رضا كحالة في كتابه : « معجم القبائل العربية » : « تميم .. قبيلة أصبح أفرادها من حاضرة نجد ، وجبل شمر والساكنة النجدية تحوي عناصر من تميم ، ونظراً لتحضرها فقد انعدمت من بينها الميزات التي تميز الأفخاذ والعشائر ولم يعد بالإمكان تفريقها إلى فرق . غير أنه يمكن القول أن الموجود في نجد من تميم يمكن حصره في ثلاثة بطون وهي :

١ - بطن حنظلة بن مالك بن زيد مائة بن تميم « ومنهم الوهبة ، بيت الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآل ثاني أمراء قطر » .

٢ - بطن سعد بن زيد .

٣ - بطن عمرو بن تميم .

وهم قوم مديون ، أعني يقيمون في المدن ويشغلون في الزراعة والتجارة ، وقد اشتهرت أسر منهم بالعلم والفضل ، وفي مقدمتها أسرة آل مشرف ، التي ينتمي اليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب .
أما مذهبهم فذهب الإمام أحمد بن حنبل .

الشيخ والعصبية القبلية

يقول والي الشام ، في تقرير عن الحركة الوهابية رفعه الى السلطان العثماني :
« ليس الشيخ محمد بن عبد الوهاب رئيس قبيلة ، ولا صاحب عصبية قوية بحسب لها حساب . »

وهذا كلام حق . فالشيخ لم يكن رئيس عشيرة ، ولا صاحب عصبية ، وقد أكرمه الله بأن جعله زعيم أمة وإمام دعوة ، يهتدي بها الناس جيلاً بعد جيل ، فما كان له أن يوقظ في بني تميم حية الجاهلية ودعائها .
على أن الشيخ سواء أكان رئيس عشيرة أم لم يكن ، فقد كان من بيت الزعامة ، نسباً وحسباً .

فإن كان بنو تميم لا يلبون نداءه ولا يرفعون لواءه ، لانعدام « النخوة » الواحدة بينهم ، فإن شرف محتده ، ومقام أسرته الرفيع ، يجعلان له في النفوس موضعاً كريماً !

١ - اورد كتاب « لمع الشباب » ، شجرة نسب للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ليس فيها صحيح ، الا اولها وهو ان الشيخ هو ابن عبد الوهاب .. وآخرها وهو ان جده الاعلى : زيد مناة ابن تميم ، واما بقية الاسماء فما ندري كيف جمعها او جمعوها له . ونحن نثبت هذا هـذه الشجرة الموضوعه ، لجرد الاطلاع عليها ، والحذر منها ، قال !

« حدثنا عبد الله بن غنام الاحسائي اخبرنا محمد بن ماجد نبأ محمد بن ماضي النجدي والكل ثقة ان محمد بن عبد الوهاب هو من بني سنان قبيلة من تميم ، فهو محمد بن عبد الوهاب بن « محمد » ابن علي بن سعد بن سلمة بن فلاح بن عبد الواحد بن حميد بن سالم بن مناة بن عبد الله بن حجلان بن عمر بن وهب بن نافع بن شبيب بن زيدان بن عامر بن مالك بن عدى بن سدراد ابن كعب بن زيد بن عبد الله بن حمد بن معاوية بن قيس بن ربيعة بن ضعضعة بن عامر بن بكر ابن هوازن بن امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم .
هذا ما صح لنا من نسبه والله اعلم ! »

نشأة الشيخ وتعليمه ومواهبه

نشأ الشيخ في بيت علم وقضاء وزعامة دينية ، فليس يستغرب منه أن يكون فقيهاً عالماً ، بل المستغرب أن يكون غير ذلك !

فإن كان الشيخ لم يدرك جده علامة نجد ، سليمان بن علي ، لأنه مات قبل ولادته بدة غير يسيرة ، فقد كان جو نجد عابقاً بعطره ، ندياً بذكره !

وحينما أدار طفلنا النابه نظره - بين أقربائه من بيوت آل مشرف - لا يقع إلا على قاض أو فقيه أو طالب عالم : فأبوه « عبد الوهاب » قاضي العيينة وعالمها ، وعمه « ابراهيم » عالم فقيه ، وابن عمه « عبد الرحمن ابراهيم » عالم فقيه ، وأخوه « سليمان » مقبل على العلم ، وكل هؤلاء مشهود لهم بالخلق والذكاء ، وهناك عشرات غيرهم !

لم يتروك « محمد » داره ، لينذهب الى المدرسة .. كما يفعل أطفال اليوم ، فقد كانت داره نفسها هي المدرسة ، وكان أبوه نفسه هو المعلم .. وهكذا ولد « محمد » في حجرة الدرس ، ولما فطمته أمه عن درّتها ، تولى أبوه تغذيته بالعلم وتعهده بالفضيلة .

يصف لنا « ابن غنام » طفولة الشيخ وصفاً جميلاً ، فيقول :

« ولد ، رحمه الله تعالى ، سنة خمس عشرة بعد المائة والألف من الهجرة النبوية في بلدة العيينة من البلدان للنجدية ، فأبنته الله نباتاً حسناً ، وجلا به عن طرف الدهر وسنا .

وبقي ، بعد سن الطفولة زمناً يتعلم .. القرآن ، معتزلاً ، في غالب الأوقات

لعب الصبيان ، ولهو الجهال والغلمان ، حتى حفظ القرآن عن ظهر قلب قبل بلوغه العشر .

وكان حادّ الفهم سريعاً ، وقاد الذهن ذكياً ، سريع الحفظ ، فصيح اللفظ ، المحي الفطنة .. ،

.. و « كان عبد الوهاب ، أبوه ، يتعجب من فهمه وإدراكه ، قبل بلوغه .. ويقول :

« استفدت من ولدي محمد فوائد من الأحكام ، !

.. و كتب إلى بعض إخوانه رسالة نوه فيها بشأنه ، يثني فيها عليه وأن له فهماً جيداً ، وقال : لو يلزم الدرس سنة على الولاية ، لظهر في الحفظ والاتقان آية .. ،

وهذه الجملة الأخيرة ، قد يفهم منها أن الشيخ محمد لم يكن يلزم الدرس ملازمة موصولة مستمرة ، ولعله لم يكن راغباً في حفظ الكتب عن ظهر قلب كما حفظ القرآن مع أنه ، ولو اتصل حفظه سنة كاملة ، لحفظ من كتبهم شيئاً عظيماً .. وتلك كانت - فيما يبدو - رغبة والده ، ولكنها لم تكن رغبة الولد !

ولما بلغ محمد بن عبد الوهاب السنة الثانية عشرة ، أدرك سن الاحتلام ، أو (البلوغ) الشرعي ، فاستبشر بذلك والده خيراً كثيراً ، ورآه صالحاً للصلاة بالجماعة ، بعد أن اجتمع له شرط البلوغ والعلم ، فقدمه للامامة ، ثم زوجته !

وسأل (محمد) أباه الحج ، فأذن له بذلك ووفر له أسبابه ، فحج ، وزار المدينة المنورة وأقام فيها شهرين ، ثم عاد إلى العينة ، يتابع الدرس على أبيه .

لم يحدد لنا « ابن غنام » المدة التي قضاها الشيخ في العينة مع أبيه ، بعد عودته من الحج ، وإنما اكتفى بالقول إنه « أخذ في القراءة على والده في الفقه ، على مذهب الإمام أحمد ، فملك فيه الطريق الأحمد ، ورزق مع الحفظ سرعة الكتابة ، فكان يجير أصحابه بحيث أنه يخط بالخط الفصيح في المجلس الواحد كراساً ، من غير سآمة ولا نصب ... ثم بعد ذلك رحل في العلم ، وسار وجد في الطلب إلى ما يليه من الأمصار ... »

وخلاصة القول في طفولة الشيخ ، أنه كان طفلاً عبقرياً ، تفتحت مواهبه في
من مبكرة جداً ، ونضج وبلغ مبلغ الرجال ، قبل الأوان ، فكان ذلك ، لا الرؤيا
المزعومة ، أكبر إشارة إلى ما سيكون له من شأن عظيم ومقام كريم .

الفصل الثاني

رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

كان محمد بن عبد الوهاب - كما رأينا - فتى نابغاً ، محباً للعلم ، وكان أبوه عارفاً بمواهبه ، معترفاً به ، فلا عجب إذا أذن له بالسفر الى البلدان العربية الأخرى لسماع الأحاديث والاستزادة من المعرفة ، وكان من عادة أهل نجد ، أن يرحل فتيانهم التابعون في طلب العلم الى الأمصار القريبة والبعيدة ، بل كان هذا شأن العلماء الأجلاء ، فضلاً عن المتعلمين المبتدئين .

« قيل للامام أحمد : رجل يطلب العلم ، يلزم رجلاً عنده علم كثير ، أو يرحل؟

فقال أحمد : يرحل.... يكتب عن علماء الأمصار !

وقال الدكتور أبو شبة ، في كتابه « أعلام المحدثين » :

« لعل مما يميز به أئمة العلم في الاسلام ، ولا سيما أئمة الحديث ، كثرة الارتحال وملازمة الأسفار ، وقد جروا في ذلك على سنن الصحابة والتابعين لهم باحسان ، فقد كان الواحد منهم يبلغه الحديث بطريق الثقات فلا يكتفي بهذا ، بل يرحل الأيام والليالي حتى يأخذ الحديث ممن رواه بلا واسطة !

ومن ارتحل في سبيل العلم والرواية الأئمة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد

وغيرهم . وان منهم من لم يذق طعم الإقامة والاستقرار طيلة حياته .
وقال الشيخ عبد اللطيف ، في كتابه : « مصباح الظلام في الرد على من كذب
على الشيخ الامام » : « .. قد عرف طلب الشيخ للعلم ورحلته في تحصيله .. وقد
اجتمع بأشياخ « الحرمين » في وقته ومحدثها ، واجازه بعضهم ، ورحل الى
« البصرة » وسمع وناظر ، والى « الأحساء » ، وهي إذ ذاك آهلة بالعلماء ، فسمع من
أشياخها ، وباحت في أصول الدين ومقالات الناس في الإيمان وغيره ... فقد كان
أهل العلم سلفاً وخلفاً يسمعون الأحاديث ويروونها ، ويحفظون السنن ويستنبطون
منها الأحكام ، وهذا عندهم هو الغاية التي يرحل اليها المحدثون ، وينتهي اليها الطالبون ،
وليس من عادتهم القراءة في كتب الرأي والفروع . » .

والحق .. إن الإرتحال في طلب العلم وسماع الحديث من عادة العلماء في كل
مذهب ، ولكن الخنابة كانوا أكثر طلباً للحديث ، لزهدهم في كتب الرأي !

رحلة الشيخ

متى بدأ الشيخ رحلته في طلب العلم ؟ ومتى انتهى منها ؟ وكما أقام في كل
بلدة ؟ ومن هم أشياخه ؟ وما هي الأمور الجليلة التي وقعت له في رحلته ؟
تلك هي الأسئلة - أو بعض الأسئلة - التي كان ينبغي لمؤلفي سيرة الشيخ أن
يجيبوا عنها ، ولكنهم لم يفعلوا ، وما كتبه مؤرخا نجد : « ابن غنام » و « ابن
بشر » ، عن رحلة الشيخ ، إنما هو وصف مختصر ، لا غناء فيه !
لذلك بحث المستشرقون عن مصادر أخرى تعينهم على فهم هذا الجزء الخطير ،
الغني ، من حياة الشيخ ، الذي نسميه : رحلة الشيخ ، وهو ، في حقيقته : شباب
الشيخ كله ، أو أكثره !

وكان المصدر الذي رجع أكثرهم اليه واعتمد عليه ، هو كتاب : « لمع
الشهاب » ، في سيرة محمد بن عبد الوهاب ، وهو الكتاب المخطوط ، المحفوظ ،
في مكتبة المتحف البريطاني بلندن .

منبداً بوصف رحلة الشيخ ، كما يرويها ابن غنام وابن بشر ، ثم ثبت رواية

«لمع الشهاب» ، وتتبع ذلك بنقد لرواية اللع ، نشير من خلاله إلى أقوال المستشرقين والمؤلفين المحدثين .

الرحلة في ابن غنام

بعد « ابن غنام » المؤرخ الأول ، والأكبر ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وقد حفظ لنا في كتابه كثيراً من رسائل الشيخ وأجوبته على المسائل ، وأخبار الغزوات التي تمت في عهده ، ونحو هذا ..

أما رحلة الشيخ ، فيختصرها لنا ابن غنام بقوله : إن الشيخ رحل إلى الأقطار .. فقصد الحجاز والبصرة مراراً ، وقصد الأحساء .. ثم عاد إلى نجد !

ومن الإنصاف أن نضيف إلى ذلك أن ابن غنام حدثنا عن عالم نجدى - وهو الشيخ عبد الله بن إبراهيم - لقيه الشيخ في المدينة المنورة ، فأجازه من طريقين ، يعني : أجازه برواية حديثين من أحاديث الرسول (ص) ، عرف الأول باسم « المسلسل بالأولوية » وهو : « الراحون يرحمهم الله . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » ، والثاني عرف باسم « المسلسل بالحنابلة » وهو : « إذا أراد الله بعبده خيراً استعمله . قالوا : كيف يستعمله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل موته » .

وحدثنا ابن غنام أيضاً عن إقامة الشيخ في البصرة ، فقال إنها كانت طويلة ، وأنه قرأ بها النحر والكثير من اللغة والحديث ، ورفع فيها أعلام التوحيد ، ونهى عن ذكر شارات الطواغيت أو الصالحين الذين كانوا « يعبدونهم مع رب العالمين » ، في مجاله ، ويبتن للناس أن محبة الصالحين ليست في صرف الحقوق الربانية إلى قبورهم ولكنها في اتباع هديهم ، وإن فاساً من مشركي البصرة كانوا يأتون إلى الشيخ بشبهات ، فيقول لهم الشيخ : « لا تصلح العبادة كلها إلا لله » ، فيبهتون !

الرحلة في ابن بشر

في المدينة

يقول ابن بشر إن الشيخ أقام في المدينة ، وطلب العلم على الفقيه النجدي الشيخ عبد الله بن إبراهيم ، من آل سيف ، رؤساء بلد « الجمعة » في سدير ، وعلى المحدث الفقيه الشيخ محمد حياة السندي .
ويروي لنا ابن بشر قصتين لطيفتين وقعتا للشيخ في المدينة مع هذين العالمين .

الأولى : مع عبد الله بن إبراهيم :

قال الشيخ :
(كنت عنده يوماً) فقال لي :
تريد أن أريك سلاحاً أعددتَه للجمعة ؟
قلت : نعم !
فأدخلني منزلاً عنده ، فيه كتب كثيرة ، وقال :
هذا الذي أعددتَه لها . !
ما أبلغ هذه القصة ! إن سلاح العلم أفضل سلاح ، لأنه يجبي ولا يقتل !

الثانية : مع الشيخ محمد حياة :

قال ابن بشر :
« حكى أن الشيخ محمداً وقف يوماً عند الحجرة النبوية ، عند أناس يدعون ويستغيثون عند حجرة النبي (ص) .
فرآه محمد حياة ، فأتى إليه ، فقال الشيخ : ما تقول في هؤلاء ؟
قال : « إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون » .
... فشبهه عمل العاكفين على الضريح الطاهر بعمل عبدة الأوثان .

في البصرة والأحساء

يقول ابن بشر إن الشيخ قرأ ، في البصرة ، عند عالم جليل ، اسمه : « محمد الجموعي » ، في مدرسة له ، وكان الجموعي يستحسن ما يقوله له الشيخ في التوحيد ، فقرّره له ، وانتفع به ، وكان أولاد الجموعي أحسن أهل بلدكم صلاحاً ومعرفة بالتوحيد ، ببركة اجتماع الشيخ بوالدم .

ولكن رؤساء البصرة هالم ما ينكره الشيخ من معتقداتهم وعاداتهم ، فتجمعوا عليه وآذوه أذى شديداً وأخرجوه من البصرة ، في وقت الهجيرة ، « فلما خرج الشيخ من البصرة ، وتوسط في الدرب فيما بينهم وبين بلد الزبير ، أدركه العطش وأشرف على الهلاك ، وكان ماشياً على رجله ، وحده ، فوافاه صاحب حمار مكاري يقال له « أبو حيدان » ، من أهل الزبير ، فرأى عليه الهية والوقار وهو مشرف على الهلاك ، فسقاه وحمله على حماره حتى وصل الى الزبير .

ثم إن الشيخ أراد أن يصل الشام ، فضاعت نفقته التي معه ، فانتشى عزمه عن المسير إليه ، لما أراد الله سبحانه ، الذي يعلم السر وأخفى ، أن يمضي أمره ويعلي كلمته ، ويجتمع أهل نجد بعد تفرقها على إمام واحد ، ويزيل عنها شعائر الكفر والبدع ، فخرج من تلك الديار وقصد الأحساء ، فلما وصل اليه نزل على الشيخ عبد الله بن محمد عبد اللطيف الشافعي الأحثي ، ثم انه خرج من الأحساء وقصد بلد حربلاء .

رِوَايَةُ "لَمْعُ الشَّهَابِ" عَنْ حَنْدَلِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ

قال مؤلف اللع :

« أنبأنا من يوثق به ، عن بعض المعاصرين للشيخ النجدي محمد بن عبد الوهاب ، أنه طلب العلم وهو حدث ، وكان يبالغ في الطلب ، ذكي الفهم ، حريصاً على التعلم ، وكان يقرأ على يد رجل اسمه « الشيخ عبد الرحمن بن أحمد » ، من أهل بريدة ، هاجر من بلده إليها ولازم صحبته ست عشرة سنة حتى أدرك منه علوم الآلات من العربية كالنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ، وقرأ عليه الحديث النبوي ، منه كتابا البخاري ومسلم ومسند أحمد بن حنبل ، ثم بعد ذلك اتبع للشيخ « حسان التميمي » ، في بلاد القصيم ، وتلمذ على يده في علم الفقه والتفسير سبع سنين حتى صار ماهراً يرجع إليه في الفتوى ، فلما بلغ عمره سبعاً وثلاثين سنة خرج من أرض نجد قاصداً البصرة .

في البصرة

فحين دخل البصرة أخفى أمره بما هو فيه من العلم وتلبس بلباس العبادلة ، وجلس في مسجد محلة المجموعة ، وقيل إن بعض التجار من أهل نجد صادفوه فعرفوه فأنكرهم لما سألوهم عن حاله ومنزله ، وكانوا يتحدثون فيه في مجالس أهل البصرة ويقولون :

« ها هنا شيخ من نجد ، كذا وكذا علمه وشهرته ، فطن ، لبيب ، لقيناه بالأمس فعرفناه ، وأنكرنا ، فتحذروا من أن يحدث في بلدكم شيئاً ، وإنا قالوا

ذلك عداوة له لأنه أخفى أمره عليهم فلم يستحسنوه ، فتجسس بعض الناس عنه فاطلعوا عليه وسألوه عن شأنه فلم يجيبهم بشيء فرفعوا خبره إلى الحاكم وكان حينئذ « عمر آغا » ، متسلم البصرة ، فأرسل عقبه شروطاً « شرطة » ، فاتوه به وأخذ يتحدث معه ويبيدي له محبة وإكراماً فرآه : جلأ فهبماً عاقلاً ذا فنون من العلم والأدب ، فنادمه أياماً وهباً له سكناً وموثة ، ورغب كثير من أهل البصرة بصحبته وكان من جملتهم الشيخ « أنس » من كبار أعيان البصرة ، « فتعاسد » الخلق حينئذ من صحبته ، حتى قيل إنه من شدة الازدحام عليه يُنصب له كرسي فيجلس والجماعة تحديق به ، فيحدث بالأحاديث الغريبة ويفسر بالتفسير العجيبة ، وقد أقام على هذا أربع سنين ، فلما عزل عمر آغا عن البصرة وحكمها الجرجيس آغا ، عزل شهاب الدين الموصلقي قاضي البصرة ، وجعل القاضي حسين « الإسلامبولي » مكانه ، وقد أنبىء القاضي حسين بخبر محمد بن عبد الوهاب وصيته ، فأرسل إليه : « إنني أريد زيارتك غداً » ! فقال : « حياً وكرامة ! » ، فحين أصبح الصباح ، ركب القاضي حسين مع تلاميذه وحشمه حتى أتوا الشيخ محمد بن عبد الوهاب فلما سمع بوصولهم إلى الباب ، قام « فالتقى » القاضي وعانقه وأجلسه في أعلى المجلس ، فقال القاضي حسين : « أيها الشيخ ، بلغني أنك تحدث الناس بأحاديث لم تعهد في كتب العلماء وتفسر القرآن بوجوه لم ينزلها رب السماء ، أتريد أن تحدث أمراً في الدين أم اشتبهت عليك طريقة المسلمين ؟ فإن لم تمتنع عن تلك الشبهات الواهية وإلا فيهدر دمك ويهتك حرمك » .

فتعذر هو من القاضي وحلف بالله ما قال شيئاً مما نقل إليه ، وأخذ يظهر الإخلاص ويلتمس ، ويبيدي العجز والإنكار ويقول : « رجل غريب طالب علم ، حلّ بأرضكم ، إن رفقتكم به فمثلكم من يكرم الضيف ، وإن « أسأموه » ، فلا ضرر ولا حيف » !

فلما سمع القاضي حسين منه هذه الكلمات أمنه ، وسار إلى بيته .

فلم تمض ثلاثة أيام حتى أرسل « القاضي » ، إليه بأن « الصلاح في شأنك أيها الشيخ أن تنزل عندنا وتكون مدرساً بالعربية وغيرها من الشرعيات بمحضرتنا ،

ولك على ذلك وظائف وافرة ، ، فبادر ، مسرعاً ، الى إجابة القاضي ، فأقام عنده يدرس بعض المترددين إليه بالحكم الإلهي والشرعي ، وتضرع الى القاضي أن يعلمه شيئاً من علم الهيئة والهندسة ، لأن القاضي حسين كان مشتهراً بعلوم الرياضة ، لا سيما بهذين العلمين ، فقرأ عليه شرح « أقليدس » ، شرح المأمون العباسي ، وكتابي المجسطي والجلجميني في الهيئة ، ولم يزل كذلك إلى أن مضى عامان ، فخرج من البصرة مستخفياً ، لم يعلم به أحد ، وسار الى بغداد ، فالتمس القاضي خبره ، فلم يعثر عليه حتى جاء جمع من بغداد فنبأوه عن حاله وأنه بلغ بغداد ، فقال القاضي حسين : أعوذ بالله من شر هذا الرجل وما فيه من الرأي ، كاد يهدم الشريعة ، لولا أن خاف على نفسه ، وستعلمون ما يكون منه بعد ذلك .

الشيخ في بغداد

وأما هو - أي الشيخ محمد بن عبد الوهاب - فقد دخل بغداد ونزل مدرسة الوزير واشتغل بدرس علم الكلام على يد الشيخ عبد الرحيم الكردي الشافعي ، وقرأ عليه كتاب « صحايف الأعمال » و « مقاصد التفتازاني » .

حكى لنا رجل بغدادي أن محمد بن عبد الوهاب أقام في بغداد في المدرسة المعروفة بمدرسة الوزير سنتين ، لم يخرج منها الى سوق أو « شوارع » قط ، ثم إنه طلع يوماً من المدرسة بعد السنتين فسلك طريقاً لا يدري أين يمضي ، حيث أنه لا يعرف أحداً من بغداد ، فرأى هنالك جماعة من الناس يتخاصمون في ميوات بينهم ولم يعرفوا قسمته ، فقال لهم : « أنا أدفع النزاع ، وأبين الأوزاع . » ، فقبلوه حكماً ، فسألهم : كم أنتم من الورثة ؟ قالوا : أربعة رجال وخمس نسوة . قال : المال ، كم هو ؟ فقالوا : كذا وكذا ، مثلاً . . . فقسم بينهم حسب القسمة الشرعية ، وكان هذا النزاع بينهم منذ أيام عديدة ، لم يرتضوا في فصله حكم أحد .

وكان بتلك المحلة مسجد جامع كبير ، وعليه وقف كثير ، فأشار اليهم أن يقيم عندهم ، ويصلي بهم الجمعة وبقية الفروض اليومية ، فاتفقوا على ذلك وأسكنوه

منزلاً وتزوج منهم امرأة ذات مال وجمال ، فلبث عندهم ثلاث سنين ، فقيل ورث منها ألفي دينار .

الشيخ في كردستان :

وفي العام السادس من وصوله بغداد سار منها الى كردستان حتى دخلها ولم أدر أي مدينة أم أي قرية حل فيها ، إذ الراوي لم يعين لي اسمها وأنا ملتزم في هذه الأوراق أن لا أقول إلا ما سمعته وحققته ، فاستقرى ديار الأكراد ، بلداً بلداً ، وقرية قرية ، سنة بتمامها .

الشيخ في همدان :

فخرج يريد إيران حتى بلغ همدان فأقام بها سنتين يَدْرُس وَيُدَرِّس ، ومن عجيب حاله أنه كان يغير اسمه في كل بلد ، قيل سمى نفسه في البصرة بعبد الله وفي بغداد بأحمد وفي الكرد بمحمد وفي همدان بيوسف .

الشيخ في أصفهان :

وهكذا لم يزل يتخذ التورية والابهام ، فسار من همدان الى أصفهان . وسكن المدرسة العباسية التي بناها شاه عباس الصفوي وكان ذلك آخر عهد الصفوية وأول سلطنة نادر شاه ، وطلب هناك علم الحكمة المشائية على يد ميرزا جان الاصفهاني المحشي على شرح التجريد فقرأ عنده شرح ملا علي القوشجي على التجريد ثم قرأ شرح المواقف للسيد شريف الجرجاني ثم قرأ حكمة العين فلم يضر أربع سنين إلا وقد كمل في علم الحكمة المشائية وشرع يدرس فيها ، وهو مجهول الحال لا يعرف أهل أصفهان من أي الممالك والطوائف هو ، وكانوا يقولون ما رأينا عربياً يستكمل في علم الحكمة غير هذا الرجل ، ثم انه أقام بعد ذلك بأصفهان ثلاث سنين يطلب فيها علم الاشرافية ومسالك التصوف واني سمعت بعضاً من أهل البصرة يقول

حدثنا رجل أعجمي أصفهاني عن محمد بن عبد الوهاب أنه بعد أن تمرن بالحكمة الاشراقية وعلم التصوف جلس في الخلوة واعتزل عن الناس ستة أشهر ثم مرّ يوماً بسوق من أسواق أصفهان وعليه جبة خضراء ، ورأسه مكشوف . فاعترضه بعض من كان يعرفه قائلاً : لم صيرت نفسك على هذه الحال ؟ فأجاب : كنت أعرف نفسي قبل لا غير ، والآن عرفت ربي ، فأردت أن أميز بين الحالتين ، فكشفت رأسي ...

فتبعه جماعة يقتفون أثره ، الى أن دخل منزله واستقر ، فاستأذنوا بالدخول ، فأذن لهم ، فقالوا : أيها الاستاذ المرشد والمعلم المنجد ، أرسدنا الى ما أنت فيه ، فانتنا من هذه الساعة قبلناك ، وفي هذا الوقت عرفناك .

وكانوا عشرة أنفار ، فبدأ يعلمهم التصوف وطريقه ، واستمر على الارشاد واستجذاب المريد سنة كاملة ، فهجس في نفسه بالحدس أنه إن عرف ببعض ما هو عليه يقتل ويصلب ، لأنه كان يقول لمريده : « ليس على الحق غيرنا » .

الشيخ في الري :

لكنه خرج من أصفهان ، قاصداً « الري » ، فر بقرية من قرأها وكان معه بعض الدراهم ، فقصد بيت أحد منها ليشتري له متاعاً حيث أن القرية لا سوق فيها فلما رآه صاحب البيت قال له ادخل فدخل ، قال بم أثبت ؟ قال أشتري متاعاً ، فقال صاحب البيت قم ها هنا حتى آتيك بالمتاع ، فخرج صاحب البيت وسار الى كبير القرية شاكياً اليه ان هذا رجل عربي قد غصني مالا كذا وكذا في سنة حجي في أرض نجد والآن قدّر عليه فوقع في بلدتنا وهو الساعة عندي في بيتي جاء ليشتري متاعاً ، فقال رئيس القرية لحامده احضره عندي فأحضره فقال له : هكذا فعلكم أيها العرب الأشرار ، تعرضون من يقدم بلادكم وتغصبونهم حقه وماله ، والله لا تبرح حتى توفي كل ما أخذته من هذا الرجل ، خذوه فغلوه . فحين سمع محمد بن عبد الوهاب ذلك قال لرئيس القرية : أبلدتك هذه قصدها أحد قبلي أم هذا أول الأمر ؟

واما قال له ذلك ليطول معه الكلام ، فيبين له الحال لعله يرق اليه ، ويعدل ..
فأجابه الرئيس : هذا كلام لا نسمعه ولا نجيب عنه ، أما المال فلا بد من أدائه .
فاتوا بالحشب فشددوه وضربوه .

ولما عرف محمد بن عبد الوهاب أنه لا يقبل منه سؤال ولا يسمع منه مقال ،
وأنه ملزوم ومظلوم لا محالة ، قال : سله كم ذا يطالبني به ؟ قال : كذا وكذا ، وإذا
هو مبلغ خطير .

قال الراوي : حاصل الأمر انهم أخذوا منه كل ما عنده من الدراهم والاسباب ،
غير الكتب ، حيث لا غرض لهم بها .

الشيخ في قم

فخرج من تلك القرية هو ومريده ، وهو رجل بغدادى اسمه «علي القزاز» ، فبلغ
« قم » ، وبقي فيها شهراً كاملاً لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد ، وكان محتاجاً قليل
الحيلة قد باع من كتبه لمؤنته .

الشيخ في بلاد الترك

فخرج منها ناجياً نحو الروم ، فاتفق مع ركب من الروم أهل أبي لباس فاصطحبوه
معهم وكانوا يسرون الفيا في وهو يحدثهم ببعض الأحاديث العربية ويفسرها لهم بلغتهم
التركية ، فأعجبهم صنيعه وفصاحته عربية وتركية ، فلما بلغ معهم أبا لباس أكرموه
وجمعوا له مالاً جزيلاً حيث متعوه وقاموا بجميع ماله من الواجب ، ومشى على
طريقته من مذهب الفقيه المجتهد أحمد بن حنبل جمع كبير من أهل أبي لباس ، ولم
يحدث هذا المذهب في أبي لباس قبل مجيئه ، بل كانوا على مذهب أبي حنيفة كما هو
المشهور في بلاد الروم .

الشيخ في حلب ودمشق والقدس

ثم سار من أبي لباس الى حلب فأقام فيها ستة أشهر يدرس بالعربية فستل عن

علم الحكمة ؟ قال : لا أدريها ...

وهذا من عجائب شأنه يظهر الامر أحياناً ، وثارة بخفيه ، ثم ذهب من حلب يستببع قرية قرية الى أن دخل دمشق الشام فلبث فيها سنة ، ولم يذكر لي ما جرى له فيها ، ثم مضى منها الى قدس الخليل ، فبقي هناك شهرين .

الشيخ في مصر

قال بعض من حدثنا عن خبر محمد بن عبد الوهاب قال خرج من زيارة « بيت المقدس » وعمد الى « مصر » فأقام فيها سنتين وأياماً قلائل وكان مسكنه الجامع الازهر في المدينة القاهرة وتعلم هناك الاسطرلاب وعلم الاعداد على يد الشيخ محمد الملقب بزين الدين ، المكنى بأبي عبدالله المغربي .

عودة الشيخ

ثم انه انحدر الى السويس وركب السفينة فأتى ينبع فنزل هناك ثم أتى المدينة المنورة فلبث فيها أياماً قليلة فصادف بذلك أيام الحج فحج بيت الله الحرام قيل انه اجتمع مع الشيخ عبد الغني الشافعي الذي كان حينئذ مفتي مكة شرفها الله تعالى فاعترف الشيخ عبد الغني بفضل وكاله وكان ذلك أيام دولة الشريف سرور ، فطلب منه الشريف سرور وأعيان مكة البقاء هناك فأبى ، فخرج من مكة يريد نجداً فلما وصل « بريدة » عرفوه فأكرموه غاية الاكرام واستخبروه عن حاله وسياحته هذه المدة ، فأخبر بالأمر كله .

وسار منها الى « العيينة » ، فهجم عليه جمع يقبلون يده ، فنعهم ، وكانوا يقولون : مولانا وملاذنا ، على ما هو عادة الناس في عرفهم مع العلماء والأكابر ، فقال لهم : « لا أرى أحداً يستحق هذا اللقب إلا الله تعالى » . فأقام بالعيينة يوماً أو بعض يوم ، ثم سار الى العارض من نجد ، لأن هناك مولده وأصل مسكنه .

نقد رواية "اللمع"

أخذت عن «اللمع» : دائرة المعارف الإسلامية وطائفة كبيرة من المستشرقين ، ثم نقل عن هؤلاء أحمد أمين والعقاد وغيرهما من الكتاب العرب .
لذلك لا نستطيع تجاهل اللمع ، لعظم أثره وشيوع أخباره في الكتب الحديثة ، ولعل الباحثين في تاريخ الشيخ إنما أقبلوا على كتاب اللمع ، لأنهم وجدوا فيه أجوبة لكثير من الأسئلة التي لا يجدون لها جواباً في ابن غنام ولا في ابن بشر !
ان صاحب اللمع ، لا يخفي عداوته ل محمد بن عبد الوهاب وحركته ، ولكنه يذكر كثيراً من الحقائق ، ويخلطها بشيء من الكذب .. وقد يصعب علينا تمييز الحبيث من الطيب ، ولكننا لا نستطيع طرح هذا الكتاب ، لمجرد احتوائه على بعض الأكاذيب والافتراءات ..

البلدان التي زارها الشيخ :

- تتلخص « مراحل » رحلة الشيخ ، في رواية اللمع ، بما يأتي :
- ١ - البصرة ، وأقام فيها ست سنوات .
 - ٢ - بغداد ، وأقام فيها خمس سنوات وتزوج فيها بامرأة غنية .
 - ٣ - بلاد العجم والكرد وما إليها .. أقام في همدان سنتين ، وفي أصفهان ثلاث سنوات ودرس خلالها الحكمة المشائية والفلسفة الاشراقية ومسالك التصوف .

- ثم انتقل الى « الري » فبلدة « قم » وأقام فيها مدة يسيرة .
- ٤ - بلاد الترك : أقام في بلدة « أبي لباس » التركية مدة ..
- ٥ - في حلب ودمشق والقدس : وأقام ستة أشهر في حلب وسنة في دمشق ، وشهرين في القدس .
- ٦ - في مصر : سافر الى مصر ، فأقام في الجامع الأزهر سنتين ..
- ٧ - ثم عاد بالبحر الى ينبع فالمدينة .. ثم حج .. ورجع الى بريدة ، فالعينة

مقارنة بين اللمع ومؤرخي نجد

رأينا ، قبل ، أن مؤرخي نجد ، ابن غنام وابن بشر ، بقصران رحلة الشيخ على « البصرة » ، ويذكران أنه زار « الأحساء » أيضاً ، كما زار المدينة ، بعد أدائه فريضة الحج ، وبمقارنة ما كتبه برواية اللمع ، يتضح لنا أن اللمع يضيف الى روايتها مدناً كثيرة لم يشيروا إليها إطلاقاً ، وهي :

بغداد ، همدان ، أصفهان ، الري ، قم ، أبو لباس ، حلب ، دمشق ، القدس ، مصر .

فما هو الصحيح ، وما هو الباطل من هذه الروايات ؟

هل زار الشيخ بغداد

أما بغداد ، فقد ترجع لدينا أن الشيخ زارها ، لا برواية اللمع ، ولكننا وجدنا ذلك في مصدر عربي آخر ، وهو كتاب : « عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد » ، ألفه إبراهيم الحيدري ..

يذكر مؤلف الكتاب أن والده أخبره أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قدم بغداد ، وأنه أخذ العلم فيها عن جده « أي جـد والد المؤلف » العالم المشهور « صبغة الله الحيدري » ثم يضيف المؤلف الى ذلك أن جده « أسعد الحيدري » لما عاد من مكة ، على طريق الدرعية ، اجتمع به الشيخ واحترمه غاية الاحترام ، كما عزه الأمير سعود وأكرمه ، وجلس عندهما في الدرعية ثلاثة أشهر .

فاذا صدقنا كلام الحيدري لم تكن لنا مندوحة عن التسليم بأن الشيخ أقام في بغداد ، كما يقول صاحب اللمع .

وهنا يرد على الحاطر سؤال ، وهو :
هل اشتغل الشيخ ، خلال إقامته في العراق ، بشيء غير الدرس والتدريس ؟
يقول « هاستنغ » إن الشيخ تعاطى التجارة .
ولم نجد مصدراً آخر يذكر ذلك .

فإن صح زواج الشيخ بامرأة غنية في بغداد ، فلا يستبعد أنه اتجر بها ، كما
فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال السيدة خديجة ، ولكننا لا نملك من المراجع
حتى الآن ما يساعدنا على تأييد هذا الرأي تأييداً قاطعاً ، وقد نقل لنا مؤلف
(الملع) نفسه حديثاً يدل على زهد الشيخ بالتجارة ! ...

هل سافر الشيخ الى الشام ؟

كانت الشام مركزاً من مراكز الفقه الحنبلي المعدودة في العالم الاسلامي ،
وهي وإن كانت أقل من القاهرة سكاناً وحرماً وعلماء ، وليس فيها مدرسة
تسمى « الأزهر » ، لكنها كانت أقرب إلى نجد ، وكان فيها عدد من النجديين
غير قليل ، قصدوها للاستيطان أو التجارة أو العلم .

وأمر آخر يجب الشام الى قلب الشيخ هو أنها موطن ابن تيمية وابن القيم
والحافظ الذهبي ، وابن كثير وابن قدامة وغيرهم من الأعلام الذين بدأ يقرأ لهم
ويحبهم ويعجب بهم .

ويؤكد أكثر المؤلفين ، من غربيين وعرب ، ان الشيخ زار دمشق ، نسي
منهم : كورانيسز ، بريدجس ، ميشو ، المؤرخ التركي جودت باشا ، خير الدين
الزركلي في « قاموس الأعلام » ، وهناك مؤلف فرنسي يحدث يزعم ان الشيخ
خرج من دمشق بفكرة عظيمة ، هي إعادة الخلافة الأموية وتحرير كل من الشام
والعراق من سيطرة العثمانيين !

قد يقال ان رواية بعض المؤلفين لا يكثر لها ، لشبهة نقلهم ما كتبوه عن
« الملع » ، ولكن « كورانيسز » و « جودت باشا » لم يطلعا على الملع ، ورجعا
إلى مصادر أخرى .

وبما يلفت النظر أن أقوال ابن بشر التي يذكر فيها عدول الشيخ عن السفر الى دمشق تناقض أقوال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن !
يقول ابن بشر ان الشيخ أراد بعد خروجه من البصرة السفر الى دمشق ، ولكن ضياع نفقته حال بينه وبين ذلك ، فعاد الى نجد ماراً بالزبير فالأحساء .
أما الشيخ عبد اللطيف فيقول : « ان الشيخ كان قد عزم وهو بمكة » ، أن يصل الشام مع الحاج ، فعاقه عائق فقدم المدينة وأقام بها ، ثم ان العليم الحكيم رده الى نجد !

والروايتان ، كما ترى ، غير متطابقتين ، فواحدة تقول انه قصد الشام من البصرة ، وواحدة تجعل هذا القصد من مكة .
نعم ، نستطيع التوفيق بين الروايتين بقولنا إن الشيخ عزم على السفر الى دمشق مرتين ، ولكن ذلك لا يحل لنا المسألة ، وهي : هل رجع الشيخ بعد ذلك ، أو بين ذلك ، الى دمشق ؟

لقد تكلم الشيخ في رسائله غير مرة عن دمشق أو الشام - كما يسمونها ، باسم الاقليم كله - وخصوصاً في معرض الرد على « المويس » والسفر منه ، لكثرة تبجعه بأنه تعلم في دمشق ، وبما قاله الشيخ في رسالته الى ابن سحيم :
« .. وهذا - أي المويس - صنف .. ما علمت ، وأرسله الى البلدان : اعرفوني ، اعرفوني ترى جاي من الشام ..
.. فيا عجباً من رجل يدعي العلم وجاء من الشام يحمل كتباً ، فلما تكلم اذا به لا يعرف الاسلام من الكفر ... لكنه هو آت من الشام ، وهم يعبدون « ابن عربي » ، جاعلين على قبره صنماً ، ولست أعني أهل الشام كلهم ، حاشا وكلاء ، بل لا تزال طائفة على الحق » .

ان كلام الشيخ عن ابن عربي وأهل الشام لا يستدل منه على أنه كان في الشام ، فما أكثر ما يتكلم الانسان عن بلدان لم يرها ، وإنما قرأ أوصافها وأخبارها في الكتب أو سمعها ممن شهدوها ، ولذلك لا نستطيع الاستدلال على زيارة الشيخ لدمشق ، بكلامه عنها ..

يزعم « بالغريف » ان الشيخ أقام في دمشق سنوات ، وان عقيدة التوحيد نشأت عنده أثناء ملازمته لعلماء الحنابلة هناك ، فقد أحب منهم بساطة الاسلام الأولى ، وكره النقشبندية و « الفسطائين » و « الفقراء » - أعني المتصوفة - وصمم على محاربة البدع التي جاء بها هؤلاء وغيرهم !

أما ابن غنام فلا يذكر اسم دمشق بين البلدان التي زارها الشيخ، ولكن ذلك لا يقوم حجة كافية على عدم زيارته إياها ما دام هناك من يقول إنه زارها، لأن القاعدة أن قول من يعلم حجة على من لا يعلم ، يضاف الى ذلك أن ابن غنام يقول إن الشيخ رحل الى « كثير » من الأقطار ، فلا يعقل أن تقتصر رحلته على البصرة .. أما الأحساء فكانت مرحلة في طريقه الى نجد ، وأما مكة والمدينة ، فكان قصدهما للحج والزيارة ، وان اقمي في المدينة أساتذة أجلاء . وبعد .. سواء أزار الشيخ دمشق أم لم يزرها ، فان دمشق ، بعلمائها الأعلام ، كابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن عبد الهادي وغيرهم هي مدرسة الشيخ الحقيقية .

هل سافر الشيخ الى فارس ودرس فيها الفلسفة ؟

يقول أحمد أمين ، في كتابه « زعماء الإصلاح في العصر الحديث » عن رحلة الشيخ في طلب العلم :

« سافر إلى المدينة ليم تعلمه ، ثم طوف في كثير من بلاد العالم الاسلامي ، فأقام نحو أربع سنين في البصرة ، وخمس سنين في بغداد وسنة في كردستان ، وستين في همدان ، ثم رحل إلى اصفهان ، ودرس هناك فلسفة الاشراق والتصوف ثم رحل الى « قم » ثم عاد الى بلده . »

لقد اشتهر أحمد أمين ، رحمه الله ، بأعجابه بما يكتب المستشرقون ، وقد كتب ما كتبه عن رحلات الشيخ في صيغة الجزم ، من غير أن يشير إلى المصدر الذي أخذ عنه ، لاعتقاده بأن أقوال المستشرقين حقائق تاريخية أو « وقائع » لا يرقى اليها الشك ، مع أنه انما ينقلها عن المستشرق « هوتسا » ، وهذا المستشرق نفسه

يقول بكل صراحة ان هذه الأقوال هي من رواية صاحب «اللمع» !
ويظهر أن الدكتور جمال الدين الشبال أخذ ، هو أيضاً ، أخبار رحلة الشيخ
عن «هوتسا» ، أو عن أحمد أمين ، لأن عباراته هي نفس عبارات هذا الأخير .
أما صلاح العقاد ، فينكر أقوال اللمع ، فيما يتصل باقامة الشيخ في بلاد العجم
ودرسه فيها الفلسفة والتصوف لسبيين :

السبب الأول - جهل الشيخ التام باللغة الفارسية .
السبب الثاني - أننا لا نجد في كتابات الشيخ أثراً لهذه الدراسات المزعومة في
الفلسفة والتصوف !
وهذا رأينا أيضاً !

أما القول بأن الشيخ كانت له «شخصية» ثانية ... اختفت تماماً ، كما يزعم
صاحب اللمع ، فنوع من الهذيان ، تورط فيه صاحب اللمع وورط فيه غيره !
في الاحساء :

زار الشيخ الأحساء ، وأقام فيها ، ولا ندري كم مرة زارها .
فان رسالته الى الشيخ محمد بن عبدالله بن عبد اللطيف الاحسائي يعاتبه فيها
على تظاهره عليه مع جماعة من خصومه ، تدلنا على أنه كان اجتمع به قبل عشر
سنوات .

ونرجح ان هذه الرسالة كتبت من العينة قبل عام « ١١٥٧ » ، وبذلك
يكون هذا الاجتماع قد تمّ عام « ١١٤٧ » ، أو قريباً من ذلك ، وليس مستبعداً
أن يكون الشيخ قد زار المهفوف «قاعدة الاحساء» مرتين ، أو ثلاثاً ، آخرها
عند عودته إلى الحجاز ونجد .

هل كانت الأحساء المرحلة الأخيرة في طريق عودة الشيخ من البصرة إلى نجد؟
ذلك ما يقوله ابن بشر . أما الشيخ عبد اللطيف فيقول « في الرسالة الثامنة
والستين » ان الشيخ سافر من البصرة إلى الأحساء ، فكة ، فالمدينة ، ثم جاء
حريملاء في نجد .

هل سافر الشيخ الى اليمن ؟

لم يشر اللمع إلى سفر الشيخ إلى اليمن ، ولكن المؤرخ الفرنسي « ميشو » يزعم ان الشيخ طلب العلم في صنعاء .
وهذا الكلام يبدو مستغرباً ، ولا نجد له ظلاً في ابن غنام ولا في ابن بشر ، وما كنا لنقيم له وزناً ، لولا أننا وجدنا في كتاب « أثر الدعوة الوهابية » للفتي هذه الفقرة :

« انتقل الشيخ إلى الدرعية في خلال سنة ١١٥٨ ، وكان له من العمر آنذاك اثنتان وأربعون سنة ، قضاها كلها في طلب العلم والرحلات ما بين نجد والحجاز والبصرة واليمن » .
وبما يضعف رواية الفتى عندنا أنه لا يؤيدها بذكر المصادر .

سفر الشيخ الى مصر ...

أما ادعاء اللمع أن الشيخ سافر إلى مصر ودرس في الأزهر ، فخير محتلق ولم يأخذ به أحد .

ضعف تواريخ ... اللمع

وبما يكشف كذب صاحب اللمع ويضعف قيمة رواياته : حساب التواريخ ..
فقد زعم أن الشيخ خرج من نجد ، وله من العمر سبع وثلاثون سنة ، وأعادته إلى نجد بعد عشرين سنة أو أكثر ، فكان عمره في زعمه سبعا وخمسين سنة ، ونحن نعرف أن الشيخ ولد عام ١١١٥ فتكون سنة عودته إلى نجد ، في رواية اللمع ، سنة « ١١٧٢ » ... أي بعد انقضاء خمس عشرة سنة على اقامته الثابتة في الدرعية ... وهذا ... وراء العقل .

سُرِّيُوخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ

لم يذكر لنا ابن غنّام من أسماء الشيوخ الذين قرأ عليهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلا :

١ - والده : عبد الوهاب بن سليمان .

٢ - الشيخ عبد الله بن إبراهيم .

ويضيف إليها ابن بشر :

٣ - الشيخ محمد حياة السندي ، في المدينة .

٤ - الشيخ محمد المجموعي ، في البصرة .

أما صاحب اللع ، فيذكر لنا أن الشيخ درس في نجد على الشيخ « عبد الرحمن ابن أحمد » ، والشيخ « حسان التميمي » ، ودرس في البصرة على القاضي الشيخ حسين علوم الهيئة والهندسة ، ودرس في بغداد عام الكلام على الشيخ « عبد الرحيم الكردي » ، ودرس في أصفهان الحكمة المشائية على « ميرزا جان الأصفهاني » ، ودرس بمصر في الجامع الأزهر على أبي عبد الله المغربي ، واسمه محمد زين الدين . وأكبر الظن أن كل هذه الأسماء لا أصل لها ، والله أعلم .

أسماء جديرة بالبحث

وهناك مؤلفون أوردوا أسماء طائفة من أساتذة الشيخ في المدينة وغيرها ،

نراها جديرة بالعناية ، وقابلة للتصديق .
فقد ذكر ابن دحلان ان الشيخ قرأ في المدينة على الشيخ (سليمان الكردي) ،
وان الشيخ سليمان هذا كتب الى محمد بن عبد الوهاب ، بعد عودته الى نجد ،
ينصحه بعدم التسرع في تكفير الناس .
ويذكر الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار ، في كتابه : « سيرة الشيخ محمد بن
عبد الوهاب » ان الشيخ درس على : اسماعيل العجلوني ، وعلي الداغستاني ، ومحمد
العفالق ، وعبد الله العفالق .
ونعترف بأننا لم نبذل جهداً كافياً في استقصاء أسماء أساتذة الشيخ .
ونستطيع القول ان مدرسة الشيخ ، بعد القرآن والحديث ، هي كتب ابن
تيمية وتلامذته . فالشيخ قرأ ، في الكتب ، وأكثر ما قرأ : علي .. نفسه .

متى عرف الشيخ التوحيد وأظهره؟

يرى بعضهم أن الشيخ عرف التوحيد وأظهره منذ طفولته أو أول شبابه ، وذلك قبل خروجه من نجد حاجاً ثم طالباً للعلم .

ومن القائلين بهذا الرأي الأستاذ عبد الغفور العطار ، فقد ذكر في كتابه : « سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب » ، أن الشيخ لم يستطع إظهار دعوته في العينة بسبب ضعفه وقلة أنصاره ، فاكتمى « باعلانها أمام قرنائه العلماء .. غير أن بعضهم قاومه أشد مقاومة .. فنشأ العداء بين فريق من العينة وبين الأسرة الوهابية ، حتى اضطر رئيسها .. إلى الهجرة بأتباعها إلى بلدة حريملاء في سنة ١١٣٩ .

.. ولكن محمداً كان شاباً .. لذا لم يبرح محمد « العينة » وبقي فيها يتافع عن آرائه ويدعو إلى مبادئه .. وبعد مدة تبعه بعض الناس .. فزاد ذلك العلماء المخرضين والرؤساء غيظاً وحنقاً ، وأخذوا يقاومونه بالقوة ويركبونه بالسخرية .. فرأى بتأقّب فكره أن يهديء مراجل غضبهم بابتعاده عنهم .. ، فرحل .. إلى مكة حاجاً .

والحق أن العطار لا يتفرد بهذا الرأي ، وربما نجد لراً ، شيئاً من التأييد في ابن بشر نفسه الذي يزعم هو أيضاً أن الشيخ عرف التوحيد « منذ صغره » ، ولما تحقق « معرفة التوحيد ومعرفة نواقضه » ، وما كان وقع فيه كثير من الناس من هذه البدع المضلة ، صار ينكر هذه الأشياء ، واستحسن الناس ما يقول ، لكن لم ينهوا

عما فعل الجاهلون ولم يزيلوا ما أحدث المبتدعون ، فلما رأى انه لا يغني القول ، ولم يتلق الرؤساء الحق بالقبول ، تجهز من بلد « العينة » الى حج بيت الله الحرام ، .. اما ابن غنام ، مؤرخ الشيخ ، فلا يذكر شيئاً من ذلك كله .. وفي اعتقادنا ان الشيخ لم بدع ، قبل خروجه من نجد ، الى التوحيد ، ولم يقع أي عداء بسببه ، خلال الفترة التي سبقت خروجه من نجد ، بين أهل العينة وبين الأسرة الوهابية ، والشيخ لم يبق في العينة بعد هجرة أبيه منها وإنما غادرها قبل أبيه ، مرتين : غادرها أولاً الى مكة حاجاً والى المدينة زائراً ، ثم عاد اليها ، ثم غادرها مرة ثانية ، الى البصرة ، وكان ذلك قبل هجرة أبيه منها الى حرملاء ، لا بعده .

كل هذا ثابت ، نجده في ابن غنام وفي ابن بشر نفسه . ان دعوة الشيخ الى التوحيد ، في نجد ، انما بدأت بعد عودة الشيخ من رحلته . ويقول لنا ابن غنام ان الشيخ دعا الى التوحيد في « البصرة » ، فقال : « ان الدعوة كلها لله ، يكفر من صرف شيئاً الى سواه .. وإذا ذكر أحد بمجلسه شارات الطواغيت أو الصالحين ... نهاء عن ذلك وزجره » . ويقول صاحب « اللع » ان الشيخ شوهد في بغداد ، كاشفاً رأسه ، على حال غريبة ، فلما سئل عن سبب ذلك ، أجاب : الآن عرفت ربي . يعني بذلك صاحب اللع ، كما يفهم من بقية كلامه ، ان الشيخ كشف له في ذلك الوقت عن حقيقة التوحيد .

ولكننا لا نستطيع الاطمئنان الى رواية اللع ، المحشوة بالافتراءات . وعندنا ان الكلمة الفصل في هذا الأمر ، هي للشيخ نفسه . قال الشيخ ، في رسالة الى أهل الرياض ومنفوحة :

« .. وأنا أخبركم عن نفسي ، والله الذي لا إله إلا هو ، لقد طلبت العلم واعتقد كل من عرفني أن لي معرفة ، وأنا ذلك الوقت لا أعرف معنى « لا إله إلا الله » ، ولا دين الاسلام ، قبل هذا الخير الذي من الله به ، وكذلك مشايخي ما منهم رجل عرف ذلك ، فمن زعم من علماء « العارض » انه عرف معنى « لا إله

إلا الله ، ، أو عرف معنى الاسلام قبل هذا الوقت ، أو زعم عن مشايخه ان
أحدًا عرف ذلك ، فقد كذب وافترى ومدح نفسه بما ليس فيه ، .

فهل بعد هذا النص قول لقائل ؟

لقد ردّ ابن سحيم على أقوال الشيخ ، بكتاب نسب فيه الى الشيخ أموراً
مفتراة ، ثم تساءل : من أين جاء الشيخ هذا العلم ، ما دام مشايخه لا يعرفونه ،
هل هبط عليه بروحي أم رآه في الرؤيا ؟

والردّ على ابن سحيم سهل ميسور ، فقد أشرق معنى التوحيد في نفس الشيخ
بعد تأمله في آيات القرآن وتدبره أسرار الأحاديث وقراءته كتب ابن تيمية
وتلامذته ، ومشاهدته باثتمزاز أوران البدع والشركيات ، فشرح الله صدره
للتوحيد ..

ان لهجة الشيخ قد تبدو عنيفة ، وقد يرى فيها بعضهم علواً واستكباراً ، ولكن
الشيخ صادق في قوله ، ما أراد بما قاله إلا الدفاع عن نفسه أمام خصوم لؤمائه ،
كان ينبغي لهم أن يقوموا مثله بالدعوة الى الدين ، بعد ان استبان لهم وجه الحق ،
فلم يفعلوا ، بل راحوا يجرحون ويفترون ويسبون ..
« أقلوا عليهم ، لا أبأ لأبيكم من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا ،

الفصل الثالث

عودة الشيخ إلى نجد

متى عاد الشيخ الى نجد ؟

من الأمور المؤسفة أن ابن غنام وابن بشر لا يجدان لنا سنة عودة الشيخ من رحلته الطويلة الى وطنه نجد .

وقد جاء في الكتاب الذي أرسله قضاة مكة ومفاتيها وعلمائها الى السلطان سليم ان مبدأ ظهور الشيخ كان في عام ١١٤٣ هـ .

ويعتبر المؤرخ التركي جردت باشا هذا العام (١١٤٣) عام عودة الشيخ الى نجد . ويقول أحمد بن زيني دحلان ان مبدأ ظهور الشيخ كان في عام ١١٤٣ ومبدأ انتشار دعوته كان في عام ١١٥٠ .

ويذهب كل من عباس محمود العقاد وصلاح العقاد والدكتور الشيال الى ان عودة الشيخ الى نجد كانت حوالي عام ١١٥٠ ، لأنه غاب عن نجد نحو عشرين سنة ، وكان خروجه من نجد سنة ١١٣٠ تقريباً ، بعد قليل من زواجه وحججه . ان عام ١١٤٣ الذي اعتبر مبدأ ظهور الشيخ لا يعني حتماً ظهوره في نجد ، فربما كان يعني إظهاره لدعوة التوحيد ، وذلك قد تم فعلاً في البصرة قبل عودته

الى نجد .

ونحن نميل الى حل وسط وهو ان تاريخ العودة يقع بين عام ١١٤٣ وعام ١١٥٠ . لأن الشيخ بقي في العينة حتى عام ١١٥٧ ، وهو يقول في رسالة من العينة إلى عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف إنه كان اجتمع به في الأحساء قبل ذلك بعشر سنوات ، أي في عام ١١٤٧ أو قبل ذلك .^(١)

في حريملاء

عاد الشيخ من رحلته الطويلة في طلب العلم ، والتعليم ، والدعوة ، إلى وطنه ، نجد ، ولكنه لم يعد إلى « العينة » ، مسقط رأسه ومصرح طفولته ومدرسته الأولى ، وإنما عاد إلى « حريملاء » ، لأن أمير العينة الجديد عزل أباه عبد الوهاب عن قضاء البلدة فهاجر منها بأسرته وانتقل إلى حريملاء وتولى القضاء فيها .

كان يتقاسم الحكم في حريملاء يومئذ أميران ، يقيم كل واحد منها مع قبيلته في شطر من البلد ، وما ندري في أي شطر كان منزل عبد الوهاب ، ولكننا نعلم أنه تولى القضاء في حريملاء على كبر سنه ، ولعله كان قاضياً لأحد الأميرين دون الآخر ! وقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب أمام أبيه ، بقرر له عقيدة التوحيد ، ويعلمه من معانيها ما جهله .

ويقول « جان ريمون » إن عبد الوهاب اقتنع بدعوة ابنه ، وقبلها ، ولكنه كان يعتنقها في الخفاء ، ولا يجهر بها إلا أمام قلة من الأصحاب ، يثق بمرءتهم وكتائبهم للسر .

ويظهر أن عبد الوهاب ترك ابنه ، أول الأمر ، يقيم حلقات التدريس ، ويبين للناس مآم عليه من البدع والخرافات ، ولكنه خشي عواقب ذلك ، ولعله كان يريد لابنه أن يخلفه في قضاء البلدة ، أو أن يكون قاضياً مثله في بلدة أخرى ،

١ - ورد في تاريخ ابن غنام المطبوع ان الشيخ رأى عبد الله الأحسائي قبل عشرين سنة ، ولكن النسخة الخطية المصححة ذكر فيها ان ذلك كان قبل عشر سنوات .

فصح له بالاعتدال ، والكف عن الإنكار على الناس ، فلم يسع الشيخ مخالفة أبيه ، وهو يرى ضعفه وكبر سنه ، فاعتدل ، بل اعتزل ... ويقول «مانحان» إن الشيخ تزوج خلال هذه الفترة ، وبقي في شبه عزلة مدة سنتين ، حتى توفي عبد الوهاب سنة ١١٥٣ هـ .

الشيخ يعلن دعوته .. ثم هجر حريملاء

قال ابن بشر :

« جلس الشيخ عند أبيه يقرأ عليه وينكر ما يفعل الجاهل من البدع والشرك في الأقوال والأفعال وكثر منه الإنكار لذلك ولجميع المخطورات حتى وقع بينه وبين أبيه كلام ، وكذلك وقع بينه وبين الناس في البلد ، فأقام على ذلك مدة سنتين حتى توفي أبوه عبد الوهاب في سنة ١١٥٣ .

ثم أعلن بالدعوة والإنكار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتبعه ناس من أهل البلد ومالوا معه واشتهروا بذلك .

وكان رؤساء أهل حريملاء قبيلتين ، أصلها قبيلة واحدة وهم رؤساؤها ، وكل منهم يدعي القول له ، وليس للأخرى على الثانية قول ولا للبلد رئيس يزع الجميع ، وكان في البلد عبيد لإحدى القبيلتين يقال لهم « الحميان » ، كثيرٌ تعديهم وفسقهم ، فأراد الشيخ أن يُمنعوا عن الفساد وينفذ فيهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهم العبيد أن يفتكوا بالشيخ ويقتلوه بالليل سرّاً ، فلما تسوروا عليه الجدار علم بهم الناس فصاحوا بهم فهربوا فانتقل الشيخ بعدها الى العينة . »

بين الشيخ وأبيه

لا يذكر « ابن غنام » شيئاً عن قصة الخلاف الذي قام بين الشيخ وبين أبيه عبد الوهاب ، هذا الخلاف الذي أشار إليه فيلبي بقوله :
« لقد قيل إن الوالد عمد في كثير من المرات إلى حد جراح طموح ذلك الشاب الذي كانت حماسته للعمل في سبيل الله قيمة بان تفوق مداركه الخاصة ، وفي مجتمع

غير مستعد لقبول فكرة ترك الحياة السهلة في ذلك العصر ،

ويقول « الفقهي » :

« كان والده كشيوخ بلاده إنما يحفظ علماً بما في كتب الفقه التي ألفها المتأخرون .

فسمع من ابنه علماً جديداً وكلاماً لا عهد له بمثله ، فخشى على ولده أن يرمى عند العامة بالكفر وأن يوصف من الدماء بالمروق من الدين ، ولعله نصح لولده حينئذ أن يعدل عن ذلك الطريق فلم يقبل الشيخ نصح والده .

أما الشيخ عبد اللطيف ، فيكتفي بالقول إن الشيخ « قدم على أبيه وصنوه وأهله ببلد حريلاً فبدأهم بالدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك والبراءة منه ومن أهله ، وبين لهم الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة وكلام السلف ، فقبل منهم من قبل - وهم الأقلون - وأما الملا والكبراء والظلمة والفسقة فكرهوا دعوته ، فخافهم على نفسه وأتى العيينة »

هل يعني كلام الشيخ عبد اللطيف أن « عبد الوهاب » كان من « الأقلية » التي تابعت الشيخ ؟ إن كلامه لا يكشف لنا بوضوح عن هذه المسألة ...

ومها يكن الأمر ، فإن الشيخ مضى يدعو إلى عقيدة التوحيد في حريلاً ، حتى انتظم في سلك الإمام - كما يقول ابن غنام - « رجال وعصابة فحول ... وكان هؤلاء الرجال ملازمين للشيخ ... فقرأوا عليه كتب الحديث والفقه والتفسير ... وكان رحمه الله ، في تلك المدة ، يروّع كل معاند ومعارض ، فاشتهر حاله في جميع بلدان العارض ، في حريلاً والعيينة والدرعية والرياض ومنفوحة ... فأتى إليه ناس كثير ، وانحاز لدعوته جمع غفير .

وكان الناس عند ذلك حزبين ، وانقسموا فيه فريقين : فريقاً أحبه .. وتابعه ، وفريقاً أنكر ذلك عليه ، وهم الأكثر .

... أقام رحمه الله ... ينشر أعلام التوحيد ... وصنف في تلك الأوقات : « كتاب التوحيد » ، حتى لهج بالانكار عليه كثير من ذوي العلم ... وركضوا مع الرؤساء والسياطين ... فقلدهم في ذلك العوام ، فكان للجميع على الإنكال

انتظام ... فجدّ في الرحيل والانتقال ، وذلك بعد أن هدى الله تعالى عثمان بن معمر لقبول هذا الدين ...

مدة اقامة الشيخ في حريملاء ، وقيمتها

كانت المدة التي قضاها الشيخ في حريملاء^(١) - ولعلها لا تتجاوز أربعة أعوام: سنتين قبل وفاة ابيه ، ثم سنتين بعد وفاته - المرحلة الأولى « التأسيسية » من مراحل دعوة الشيخ في بلاد نجد ، وضع خلالها « كتاب التوحيد » ، الذي أوضح فيه انواع الشرك والبدع ، وحذر منها ؛ وأخذ يرسل كتبه ورسله إلى بلدان مختلفة من بلدان العارض لنشر عقيدة التوحيد ، وقد لقي أنصاراً في بعض المدن كالعينة والدرعية ، وقدم عليه طائفة من أهل العارض إلى حريملاء ، وكان أعظم رجل كسبه إلى دعوته ، خلال هذه المرحلة : عثمان بن معمر ، أمير العينة .

في العينة

انتقل الشيخ الى العينة ، وكان يتزورها أمير جديد ، هو « عثمان بن حمد بن عبد الله بن معمر » ، أحب الشيخ ، واعتقد بدعوته ، وأعلن ذلك بين رجاله المقربين ، ولعله هو الذي دعا الشيخ الى القدوم عليه ، بعد ان بلغه شدة ما يلاقيه من أهل حريملاء .

جاء الشيخ إلى العينة ، ببلدته وموطنه الأول ، وبقي - كما يقول هوتسا - ثمانية أشهر معتزلاً الناس ، ثم جهر بدعوته ، على نحو ما ذكر في « كتاب التوحيد » ،

١ - يقول امين سعيد (يمكن القول ان هذه الفترة التي قضاها في حريملاء قد امتدت ١٥ سنة ، اي منذ وصوله سنة (١١٣٩) الى سنة هجرته الاولى الى العينة سنة (١١٥٣) - كذا - وقد بينا ان الشيخ لم يأت حريملاء عام (١١٣٩) وانما جاءها بعد ذلك بسنوات .. ولم يقم الشيخ في حريملاء ١٥ سنة ولا نصفها ولا ثلثها !

فلقي شيئاً من النجاح ، ولكنه لقي كذلك شيئاً من المقاومة ، وكان أخوه سليمان وكثير من أقربائه ضده .

ثروة الشيخ وزواجه

ويقول « هوتسا » إن الشيخ كانت له في العينة أموال ، فلم يعيش على مائدة الأمير ، وإنما عاش من ريع أملاكه ، وقد تزوج « الجوهرة » بنت عبد الله بن معمر وكان من الثراء بحيث يستطيع القيام بحقها .

حياة هدوء ووقار

ويصف لنا « ندره مطران » - نقلاً عن « بلغريف ورفيقه الجرمييري » - حياة الشيخ بأنها كانت حياة هادئة وقوراً ، ثم اشتدت الخصومة بين أنصار الدعوة وخصومها ، فاضطر الشيخ الى الجلاء عن البلدة ، قال مطران :
« كانت العينة يومئذٍ أم مدن نجد ، وعلى مقربة منها يقوم ضريح زبد ، البطل الشهيد الذي يكرمه الشعب وينظر الى ضريحه كمقام مقدس ، تحمل اليه النذور والهدايا .

كان ذلك شيئاً مثيراً لأعصاب المصلح الوهابي ، ولكنه صبر ، حتى تأتي الفرصة . كان يعيش في داره حياة هدوء وعزلة ، وكانت حكمته وهيبته وفصاحته ومعرفته ، بالإضافة الى ثرائه الواسع ، تحيطه بالوقار والاحترام .
وكان ابن معمر نفسه يعظمه ويحبه .

شعر المصلح أن ساعة العمل أزفت ..
وفي ذات مساء ، سمع من شباك داره رجلاً يستغيث بزبد ، ويدعوه ، ليعيد اليه بعيداً أضاعه .. فصاح به الشيخ محمد : « أدع الله ، إله زبد ، يا رجل ! »
وسمع كلامه الناس ، وراحوا يتجادلون فيه ..
ثم مضى الشيخ في دعوته بقوة ، وانقسمت البلدة على نفسها في أمره ، وكثر اللفظ حوله ..

حماسة الأمير في نصرة الشيخ

يقول ابن بشر إن الشيخ « عرض على عثمان ما قام به ودعا إليه وقرر له التوحيد ، وحاوله على نصرته ، وقال : « إنني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله ، أن يظهر لك الله تعالى ومملك نجدا وأعراها ، !

فساعده عثمان على ذلك ، وأعلن الشيخ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتبعه أناس من أهل العينة .

ويصف لنا ابن غنام وصفاً حاراً حماسة الأمير وتأييده العظيم للشيخ ، فيقول إن عثمان « قام معه .. وقعد ، وساعده . واجتهد ، وأمر الناس له بالاتباع ، وعدم المشاققة والنزاع ، وألزم الخاصة والعامة أن يمتثلوا أمره وكلامه .. ويظهروا توقيره وإكرامه .. ففشا الدين في بلدان العارض المعروفة .

وهذه الجملة الأخيرة في كلام ابن غنام ، تدلنا على خطورة الفترة التي قضاها الشيخ في بلدة العينة ، وعظم أثرها في انتشار الدعوة .

كانت إقامة الشيخ في (العينة) - ولعلها أربع سنوات وهناك من يزعم أنها أقل من ذلك - كبيرة الأثر في تاريخ الدعوة ، فقد استطاع الشيخ أن يحقق في العينة بعض ما دعا إليه في كتاب (التوحيد) ، وعجز عن تحقيقه في « حريملاء » لانقسام أهلها على أنفسهم وطغيان حزب الضلال والفسقة على البلدة ، وقد كتب الشيخ ، في العينة ، رسائل كثيرة يشرح فيها عقيدة التوحيد ويرد على خصومها ويبين أنواع الشرك ، وكان الناس يتداولون رسائله ، وكان أنصاره يتزايدون كل يوم ، في بلدان العارض .

هل كان الشيخ قاضياً ومطوعاً

ومن حقنا ان نتساءل الآن : هل كان الشيخ في العينة مفتياً ومطوعاً وقاضياً ؟ قال صاحب الأحساء في كتابه إلى أمير العينة : ان هذا المطوع الذي عندك .. ، يعني الشيخ محمد بن عبد الوهاب ! فهل كان الشيخ حقاً مطوعاً لبلدة العينة ، أم

أن هذا « اللقب » إنما أطلق عليه لمجرد قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟
لم يذكر « ابن غنام » ، شيئاً عن ذلك ، ولكن كلمة « مطوع » أصبحت تبدو
لنا صغيرة في هذه الأيام لأنها لا تعني الآن منصباً دينياً كالقضاء ، وإنما تطلق على
موظفين صغار ، كأنهم أفراد « الشرطة الدينية » .

أبرز أعمال الشيخ في العيينة

وقد نستطيع تلخيص الأعمال البارزة التي قام بها الشيخ في العيينة كما يأتي :
مكافحة الشرك عملياً ، وتحقيق أسلوب « سد الذرائع » ، وذلك بقطع الأشجار
التي يعتقد فيها العامة ، وهدم القباب المبنية على القبور ، التي كانوا يتعبدون لها .
يرصف « بركات » هذا العمل بأنه أسلوب موفق وناجح جداً في كسب
الشهرة والأنصار ، لأن الناس قد يعجزون عن فهم الأقوال التي تلقى على أسماعهم ،
ولكنهم يؤخذون تماماً بالأعمال الغريبة التي يرونها بأعينهم .

« وهم إذا كانوا يعتقدون ، مثلاً ، أن قبر الولي يحميمهم ، ثم وجدوه غير قادر
على حماية القبة المبنية على قبره والنار من هدمها ، آمنوا بأنهم كانوا على خطأ في
الاعتقاد بقدرته على النفع والضرر ... »

وبذلك تفعل الأعمال في إقناعهم أكثر مما تفعل الأقوال ! ،

أشار الشيخ على أمير العيينة بقطع الأشجار وهدم القباب ، التي يذهب الناس
إليها للاستغاثة والشفاعة ، ويدعونها مع الله أو من دونه ، وبذلك يرتكبون أفظع
ألوان الشرك ، فأذن له الأمير بأن يفعل ما يريد ، وهو من ورائه ، بحميه وبعينه !

قطع الاشجار

ويقول ابن بشر إن الشيخ بعث إلى الأشجار التي يعظمها الناس « سرأ من
يقطعها ، بأجرة من ماله ، فقطعت » .

ويقول ابن غنام إن الشيخ « باشر قطع شجرة « الذيب » بيده »^(١) وأما شجرة

١ - لعل شجرة الذيب هي التي عناها ابن بشر بقوله: وفي البلدة شجرة هي اعظمهن عندهم ،
وذكر لي ان الشيخ خرج اليها بنفسه سرأ يريد قطعها ، فوجد عندها راعي غنم اهل البلدة ،
فأراد ان يمنمها منه او انه خاف ان ينم عليه ، فأعطاه الشيخ احد اسلابه الذي عليه ، وخلي
بينه وبينها ، فقطعها .

« قريوه » فقطعها ثنيان بن سعود ومشاري بن سعود وهما أخوان لأمير الدرعية ، مع جماعة سواهما .

هدم القباب

ثم قام الشيخ ، والأمير عثمان معه ، بهدم القبة المبنية ، فيها زعموا ، على قبر الصحابي زيد بن الخطاب ، فقال لعثمان :

دعنا نهدم هذه القبة التي وضعت على الباطل ، وضل بها الناس عن الهدى ، فقال : دونكها فاهدمها .

فقال الشيخ : أخاف من أهل الجيلة أن يوقعوا بنا ، ولا أستطيع هدمها إلا وأنت معي .

فسار معه عثمان بنحو ستائة رجل ، فلما قربوا منها ، ظهر عليهم أهل الجيلة ، يريدون أن يمنعهم ، فلما رآهم عثمان علم ما هموا به ، فتأهب لحربهم وأمر جموعه أن تنزل للحرب ، فلما رأوا ذلك كفوا عن الحرب وخلوا بينهم وبينها .

ذكر لي ان عثمان لما أتاها ، قال للشيخ : نحن لا نتعرضها !

فقال : اعطوني الفأس !

فهدمها الشيخ بيده حتى ساواها ، ثم رجعوا ..

فانتظر تلك الليلة جهال البدو وسفهاؤهم ما يحدث على الشيخ بسبب هدمها ، فأصبح في أحسن حال .^(١)

قال ابن غنام : فلم يبق وثن في البلدان ، التي تحت يد عثمان !

وشاع ذلك واستبان .. وسارت به الركبان .. فأنكرت ذلك قلوب الذين حقت عليهم كلمة العذاب .. فأخذوا في رده والإنكار عليه .. وعجبوا مطبقين على الشيخ بأنه ساحر ومفتو وكذاب ، وحكموا بكفره ، واستحلل دمه وماله ..

وكان أشد الناس والعلماء إنكاراً عليه .. وسعيًا بالشر إليه : سليمان بن سحيم

وأبوه محمد ... فقد أنهم في ذلك وأنجد ... وحشر علماء السوء .. وبعث الطروس مترعة بالباطل والمين ، الى علماء الحساء والبصرة والحرمين ، فقاموا معه فوراً بالإنكار وأفتوا للحكام والسلاطين .. بأن القائم بدعوة التوحيد : خارجي ، ومن أقبح الضلال والفساق والكفار وأشر الخوارج الفجار ... وحسبوا أنهم إذا حرشوا عليه الحكام يجدون في قتله .. فيفوزون حينئذ بما كانوا يؤملون ... فصفوا المصنفات في تبديعه ^(١) وتضليله وتغييره للشرع النبوي .. وعدم معرفته بأسرار العلوم .. وسطروا فيها الجزم بكفره .

وبلغ من سوء نيتهم ومكرهم أنهم أنكروا من الشرع الأمور المعروفة فذكر لنا أنهم أنكروا على عثمان بن معمر أدبه من تخلف عن الصلاة في جماعة المسلمين .. وجباية الزكاة .. وغير ذلك من أمور الدين .

وكان كثير من علماء نجد .. يأتون رؤساء البدوان ويحذرونهم من وقوع الصلاة في حميم وسماع الأذان ...

وأشد ما حملهم على ذلك .. إعلان الشيخ التمسك والاعتصام بالسنة والكتاب ، والعمل بما جاء من هدى الأصحاب ، وبما اختاره الأئمة الأربعة الذين شاعت مذاهبهم في الامة ، فهو وإن كان التزم مذهباً ، فلا يقدمه على النص القاطع ولا يتعصب له .. ومع كل هذا الذي صنعه خصوم الشيخ ، لم يدر كوا بغيتهم ، وبقي أمر الشيخ في ازدياد ^(٢) !

رجم المرأة الزانية

وفي تلك الأم ، جاءت امرأة من اهل العينة إلى الشيخ وأقرت على نفسها بأنها زنت ، وهي محصنة ، فأراد الشيخ أن يلتمس لها عذراً ، فلعلها مجنونة لا تعقل ،

١ - اي بأنه صاحب بدعة منكورة .

٢ - قال ابن غنام (كثر بعد ذلك صحبه وجمعه وزاد اعلانه بالتوحيد وصدعه ، وردعه اهل الشرك وقمعه ، ومن العداوة ما يسرك نفعه ..

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود .)

أو مغصوبة لا إرادة لها ، ولكن المرأة كانت عاقلة ، وأقرت للشيخ أربع مرات بأنها أقدمت على فعلتها الشنعاء بحض إرادتها ، فلم تكن للشيخ مندوحة عن الأمر برجمها .. « فخرج الوالي عثمان وجماعة من المسلمين فرجموها حتى ماتت ، وكان أول من رجمها عثمان » ^(١) .

أثارت هذه الحادثة ضجة عظيمة في بلدان العارض بل تجاوزتها كثيراً ، وكانت وسيلة الى حملة جديدة عنيفة ماكرة ، اشترك فيها خصوم الشيخ كلهم ، فزعموا ، فيما زعموه ، أن الشيخ لا صفة له تخوله الحكم والرجم ، وإنما يجب أن ترفع القضية إلى السلطان ، ليأذن برجمها !

وقد رد عليهم الشيخ ، وبين لهم ان ما فعله هو حكم الله ، المؤيد بالسنة والجماعة ، وبما قاله الشيخ إن الأئمة من كل مذهب مجمعون : (أن من تغلب على بلد أو بلدان ، له حكم الإمام في جميع الأشياء ، ولولا هذا ما استقامت الدنيا ، لأن الناس في زمن طويل ، قبل الإمام أحمد إلى يومنا هذا ، ما اجتمعوا على إمام واحد ، ولا يعرف أن أحداً من العلماء ذكر أن شيئاً من الأحكام لا يصح إلا بالإمام الأعظم . وقولك : هل يجب عليك ؟ فنعم ، يجب على من قدر عليه ، وان لم يفعل أثم ، ولكن أعداء الله يجعلون هذه الشبهة حجة في رد ما لا يقدرُونَ على جعله ، كما إنني لما أمرت برجم الزانية قالوا : لا بد من إذن الإمام ..

فإن صح كلامهم ، لم تصح ولايتهم القضاء ، ولا الإمامة ولا غيرها ! ، لم يستطع العلماء المكابرون الصمود للشيخ محمد في ميدان الحجة والمنطق ، فلجأوا الى الافتراء والمكر ، وكتبوا إلى رئيس الأحساء وبني خالد : (سليمان آل محمد) ، الذي يعرفون أن أمير العينة يدور في فلكه ، وينقاد إلى أمره ، وقالوا له ، فيما قالوه من الأكاذيب : إن الشيخ يريد إخراجكم من ملككم ، وإثارة الناس عليكم ، وأقل ما يقوله للعمامة إن المكوس والعشور التي يأخذها الأمراء باطلة لا يقرها الدين ، وها هو يرمي امرأة بغير حق .. إلى غير هذا من الإلفك والبهتان ..

ويقول ابن غنام إن رئيس الحسا كان مغرمًا بالزنا ، مجاهرًا به ، فأغضبه رجم الشيخ للزانية ، بينما يزعم المؤرخ الفرنسي « ميشو » إن تلك المرأة كانت قريبة لأمير الحساء ؛ ومهما يكن الأمر ، فقد كتب رئيس الحساء الى عثمان ، يطلب منه تأديب الشيخ !
وهنا تختلف الروايات ..

١ - فهوتما يقول : إن رئيس الحساء طلب نفي الشيخ من العينة وإخراجه .
٢ - وميشو يقول : إنه طلب منه أن يسلم إليه الشيخ ليتولى هو عقوبته ، ولكن امرأة الشيخ ، وكانت قريبة لأمير العينة ، عرفت بذلك ، فأخبرت زوجها ، فالتجأ إلى ابن سعود .

٣ - وابن غنام يقول إنه أمر عثمان بقتله أو إجلائه عن وطنه ، وألزم عليه في ذلك غاية الإلزام .. وصرح له .. بأنك إن لم تفعل فمالك عندي مستباح .. فأثر عثمان الدين على الدين .. وأمر الشيخ بالخروج ، ولم يكن إلى قتله سلم ولا عروج ، فخرج الشيخ الى بلد الدرعية .

٤ - أما ابن بشر فيقول ان سليمان ارسل الى عثمان كتابا يقول فيه :
« إن هذا المطوع الذي عندك ، فعل وفعل ..
وتهدد عثمان ، وقال : « اقتله : فإن لم تفعل ، قطعنا خراجك الذي عندنا في الأحساء .. »

قال ابن بشر : وخراجه عندهم كثير ، قيل لي إنه اثنتا عشرة مئة أحر (دينار ذهب) ، وما يتبعها من طعام وكسوة ، فلما ورد عليه كتابه ، ما وسعه مخالفته . فأرسل إلى الشيخ ، وقال له :

- إنه أتانا خط من سليمان ، قائد الأحساء ، وليس لنا طاقة بحربه ولا اغضابه . فقال له الشيخ : إن هذا الذي أنا قمت به ودعوت إليه ، كلمة « لا إله إلا الله » وأركان الإسلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإن أنت همسكت به ونصرته ، فإن الله سبحانه يظهرك على أعدائه ، فلا يزعجك سليمان ولا يفزعك ، فأني أرجو أن ترى من الظهور والتمكين والغلبة ما يملك به بلاده وما وراءها وما

دونها .

فاستحي عثمان ، وأعرض عنه .

ثم تعاضم في صدره أمر صاحب الأحساء ، وباع الآجل بالعاجل ،
وذلك لما علم الله سبحانه الذي يعلم السر وأخفى ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ،
بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، أن نصر هذا الدين والظهور والغلبة والتمكين
يكون لغيره وعلى يد غيره فأرسل إلى الشيخ ثانياً ، وقال :
- إن سليمان أمرنا بقتلك ، ولا تقدر على غضبه ولا مخالفة أمره ، لأنه لا طاقة
لنا بمجربه ، وليس من الشيم والمروءة أن تقتلك في بلادنا ، فشأنك ونفك وخل
بلادنا (١) !

١ - يقول مؤلف « تاريخ الأحساء » انه قيل لسليمان ، حاكم الأحساء : « انه قد ظهر في
بلاد ابن معمر ، عالم يضل الناس ، ويعتقد تكفير المسلمين ، فكتب الى ابن معمر بقتله » .
وهكذا اغفل قصة المرأة الزانية ، وجعل مسألة تكفير المسلمين وتضليلهم السبب في غضبة حاكم
الأحساء على الشيخ ودعوته .

روايت اللّمع عن حياة الشيخ في العيّنة

أورد « لمع الشهاب » روايتين عن مقام الشيخ في العيّنة وخروجه منها – وقد سمى العيّنة في الرواية الأولى : « البامة » ثم عاد في الرواية الثانية فذكر اسم « العيّنة » – ومن الصعب التثبت من صحة أقواله ، ولكننا ننشرها كوثيقة تاريخية ، لا تخلو من بعض الحقائق ، ويزيد في حرصنا على ذلك أنها لم تنشر من قبل في أي كتاب عربي .

رواية اللّمع الأولى

قال مؤلف اللّمع :

« حدثنا بعض الثقات المعاصرين لمحمد بن عبد الوهاب وقد أدر كناهم شيوفاً في الزبير .. يقول : حقيقة الأمر في بدعة محمد بن عبد الوهاب هو أنه لما رجع من سياحته المدة المعلومة واستقر ببلدته البامة – وكانت ضعيفة بالنسبة لسائر بلدان نجد وكان الناس تفرّ منها بسبب ظلم حدث فيها بجور حكامها وولاتها وكان فيها التعدي معروفاً دون غيرها وقد زاغت قلوب أهلها عن الوفاق وامتلات من النفاق حتى قيل ان « البامة » كان يسكنها خلق كثير بقدر ستة آلاف بيت أو أكثر

وكانت بأيام محمد بن عبد الوهاب يسكنها ثلاثمائة بيت - قال المحدث الثقة : لما أراد محمد بن عبد الوهاب ظهور « البدعة » جلس في بيته ثمانية أشهر معتزلاً عن الناس ينظر في الكتب دائماً فحين مضت المدة ، خرج على الناس يوماً ، وفي يده كتاب صغير الحجم فقال : « أشهد الله أنني مقتنف ما في هذا الكتاب وأنا أقول إن الذي سطر فيه هو الحق لا غير . »

فقام رجل اسمه « علي بن ربيعة » وهو من كبار بني هميم من قبيلة بني سعد فقال له : يا محمد أنت رجل شريف في قومك لا تقل ما ليس حقاً ، فتندم بوقوع الفتنة بين الناس .

قال : هذا الكتاب اقرأه فإن وجدت فيه خللاً عاتبني به ، فأخذ الكتاب وجعل ينظره من أوله إلى آخره ثم رده إليه قائلاً : هذا حق ، فبين لنا كيفية سلوكه وما ينبغي أن يتبع بسبب رواجه .

فقال له محمد بن عبد الوهاب : طريق رواج هذا الأمر النصيحة وبذل المعروف . فقال له علي بن ربيعة : فان لم يجرِ بذلك ؟

قال : بالسيف !

فقال : كيف يستحق القتل من لا يتبعه ؟

فقال : لأنه كافر مشرك !

قال : تقول هذا ؟

قال : نعم وهو اعتقادي .

فتفرق المجلس ، ورجع هو إلى بيته ، فجاءه ابن عمه « عبد الله بن حسين » ، وقال له : أحقاً ما نقلوه عنك يا ابن عمي من الخروج بهذا المذهب ؟

قال : نعم !

قال له : والله الذي لا يعبد غيره إن دعوت أحداً من بني سنان إليه لاختطفنا رأسك !

فوقع بينهما تشاجر وجدال ، فأوماً عبد الله إليه بالسيف فأصابه بيده ، وكاد أن يبرئها فقام بعض بني أعمامه ليمنعوه ، فوقع الفتنة بين قبائل تميم الياومة ،

قيل : قتل ذلك اليوم حماد بن رشيد السعدي وصالح بن فهد الناني وجبير بن ناصر النهدي وسبعة نفر لم يسموا بأسمائهم إلا أنهم من بني سنان خاصة .

قال الراوي : ثم بقي محمد بن عبد الوهاب سنة كاملة في اليمامة قائماً بما هو فيه من الدين ولم تبحر الفتنة بين القوم بسببه ، فبعض يصدقه وآخر يكذبه الى أن صار القوم الذين نصره أذلاء ، فانهزم منهم أناس وآخرون قتلوا وبعض لبثوا في بيوتهم وحصونهم وشاع أمره في أرض نجد فسمع بذلك سليمان بن شامس العنيزي وكان كبير قومه البداة وكانوا ينزلون طرف العارض فأرسل الى كبار اليمامة من تميم وغيرهم أن هذا أمر حدث عندكم وقد أخرجه فلان العالم منكم فإياكم ومتابعته ولا تجعلوا له مسكناً ولا مأوى في اليمامة فان بلغني عنكم إبراره وإكرامه ومنعته لأركبن عليكم بفرسات ورجال لأوجولن عليكم بعززة كلها ..

فلما بلغ أهل اليمامة كتاب سليمان بن شامس ، قال بعضهم لبعض : يجب علينا امتثاله فان عذرة قوم ذات حرب ووصولة ، ونحن قليلون لم نبلغ معشارهم لا رجالاً ولا مالاً ، وان ما دعانا اليه سليمان حق لا ينبغي العدول عنه ولا التهاون فيه ، مع أن محمد بن عبد الوهاب ليس بعزيز علينا كعزة أنفُسنا وأعراضنا ، كيف وهو أتى ببدعة كفر وقصد تكفير المسلمين بها . فاتفق رأي الجميع على إخراجهم من بيته قهراً ، حتى بنو أعمامه عزموا على ذلك ، فنادى مناد يوم الجمعة ، أن اجتمعوا بعد صلاة الجمعة على إخراج محمد بن عبد الوهاب من بلادكم فان أبي فاقتلوه ، فلما سمع أخوه علي بن عبد الوهاب ، وكان هو غير عالم وحقيير بينهم ، جاء الى أخيه محمد بن عبد الوهاب وقال له : يا أخي أنصحك لله تعالى أن تطلع هذا اليوم من اليمامة وتضي الى حيث شئت ، فان أرض الله واسعة ، وإن كان هذا الذي ادعيتة حقاً فإله يسخر قلب أحد من خلقه ليديه ومجبيه ، فاستحسن رأي أخيه علي وقال : « كيف المسير هذا في وسط النهار وأنا لا أخرج من بين عشيرتي وقومي وبلادي الا بجميع أهلي وعيالي ومالي وأخشى أن يتعرضني أحد من سفهائهم ، والغيرة تمنع القبول بذلك ، نعم اذهب الى علي بن ربيعة وعبد الله بن حسين وخذ لنا ذمة وأماناً منهم

فان أعطوك ذلك خرجنا هذه الساعة، والله المعين، وان عرفت منهم ما ينكر الحال فאלله المستعان ، لما نزل في حقنا ، هذا ودفع الصائل واجب ، وإلما خصّ علي بن ربيعة وعبد الله بن حسين السناني لأنها هما اللذان يخافهما ولأنها المتوليان زمام القبائل التي في البهامة من بطون تميم ، فسار أخوه علي بن عبد الوهاب اليهما فالتاهما ، وقد تمت صلاة الجمعة ، وقد خرج الناس من المسجد الجامع بأسلحتهم مصممين على أن يمشوا دفعة واحدة على حصنه ويأسروا عياله ويأخذوا ماله ولا يرضوا له بأمان إلا على نفسه وحده ، ويلزموه بأن يخرج من البلد بساعته !

قال بعض من أخبرونا بهذه القصة إن محمد بن عبد الوهاب كان عنده مال كثير كان قد جمعه من سياحته وقد عرفه أهل بلاده وكان عنده خدم سبعة أو ثمانية عبيد سودان اشتراهم من مكة وكان كل منهم محارباً مسلحاً يظن به النجدة وكان معه ولداه اللذان ولدا له قبل سياحته وهما ناصر، وعبد الوهاب، وكان معه أربعة رجال من بني عمه القريب أبنا حسين بن عبد الوهاب أخوة عبد الله بن حسين الذي ذكرناه لهذا كان يحسب نفسه في عصمة ويستطيع أن يقاتل على حصنه محاصراً ، فلما قال أخوه علي بن عبد الوهاب لعلي بن ربيعة وعبد الله حسين ما قال لهما قبلا ذلك فذهبا الى محمد بن عبد الوهاب وقالاه : هذه ذمتهم قد أعطوك إياها ، فهيأ نفسه وعياله ومن يتبعه للخروج فخرجوا ذلك اليوم قبيل غروب الشمس فاتوا الوادي وهو قرية محمد بن سعود .

رواية اللمع الثانية

« حدثنا رجل من أهل الدرعية يوثق بقوله ان محمد بن عبد الوهاب أول أمره لما خرج من قومه ومنزله بما أراده من الأمر ، جلا الى (العينة) قبل دخوله الدرعية واتفاقه مع محمد بن سعود فالتجأ الى عثمان بن معمر التميمي حاكم (العينة) ، فاتفقا على اقامة هذا الأمر والدين والعمل بالشرع الشريف اذ لا ينفع علم بدون عمل قط واجتمعا على أن يبطلا جميع ما سوى هذا المذهب من المذاهب وغيرها موماً ووافقهم على ذلك كثير من أهل العينة من وجوه البلد واعيانها من

خدم ابن معمر وحشمه ، وبعض الناس الذين هناك لم يرضوا به ، فاستمر محمد بن عبد الوهاب مدة في العينة ، وربما أتاه بعض القوم من بلاد نجد لما سمع بصيته الى العينة وبابعه ، وتاريخ وقوع هذا الأمر في آخر سنة الحسين بعد الالف والمائة ، وأما أكابر ومشايخ سائر أهل نجد فلم يرضوا بشيوع هذا الدين لانه يفسد عليهم قوانين كلية وقواعد اصلية وضعت عليها حكومتهم اذ بلاد نجد وقبائلها... لا ضابط لها مجتوي على الكل ، وليس هناك رئيس قاهر يردع الظالم وينصر المظلوم بل كان كل من الحكام حاكم بلده ، مدينة كانت أم قرية ، وفي البدو ، كذلك كل طائفة منهم لها كبير يرجع أمرهم إليه ، والبداة إذ ذاك قبائل شتى يرعون البراري والقفار ويشربون المناهل والآبار وحكومة كل شيخ في قبيلته برضاها ، وكل من تقدم كرمأ وشجاعة رضوا به كبيراً لهم ، وفيهم مشايخ صغار في نفس القبيلة الواحدة يخالفون رأي المشايخ الكبار ، وكان البدو يتعاضدون في قصصهم الى العرف لا الى الشرع وقد يأخذ العرف منهم الرشوة وهي حقيقة ما يعطى لابطال الحق وأولئك الحكام طاغون لكونهم يصدون الناس عن اتباع حكم الشريعة ، وأما الحضر من أهل نجد فمرجعهم الى الشرع في فصل الخصومات والدعاوى ما عدا وادي الدواسر وجبل شمر لأنها الى البدو أقرب منها الى الحضر ، وكان أهل المدن من أهل نجد ، دائماً مجارب بعضهم بعضاً على حسب مقتضى الحال وصلاحه بنهج ما قررناه فيما مر من أن كل حاكم له حوزته الخاصة فاذا أراد ملك غيره تسخير حورب من جميع البلدان وهكذا الشأن بينهم أبداً وقد يقع بين كل أهل البلدان صلح إذا قطع الطمع ظاهراً .

فلما حررناه ، غضبت حكام نجد مطلقاً إلا من عرفت منهم وهو عثمان بن معمر ومحمد بن سعود صاحب الدرعية كما ستقف على حقيقة الأمر .

وحين رأى أكابر نجد ما صدر عن محمد بن عبد الوهاب وما ينجشون من عاقبة صنعه شكوا ذلك الى سليمان آل محمد الحميدي الخالدي حاكم بني خالد والأحساء والقطيف وقطر كلها فاتمسوا منه أن يمشي على العينة ويجليه من بلده ، وإلما

استمدوا من سليمان هذا لأن أهل نجد (كانوا عاجزين عن قهر^(١) ابن معمر ذلك الوقت، إذ هو في غاية المنعة والنصرة وكثرة الجنود والمال الكثير لأن بلاده أكبر مدن نجد وأكثرها محصولاً وخراجاً وأهلها أطوع لحاكمهم من غيرهم ، فلما بلغ خبر محمد بن عبد الوهاب الى سليمان آل حميد بما بلغ ، كتب كتاباً الى عثمان بن معمر : ان اخرج هذا الشيخ النجدي من بلدك الى آخر جزيرة العرب أو أرسل به إليّ وأنا أبصر به ، فإن لم تجبني الى أحد هذين الأمرين أقطع وظايفك التي لك في الأحساء وأمنع جباتك عن تحصيل مالك من النخيل في الحساء ، وكان لعثمان ابن معمر في الأحساء مال ونخيل وأرض ورثها عن أكلبه واجداده ويبلغ محصولها كل عام ستين ألف ريال ذهباً .

وذكر له أيضاً : « باني أمنع تجار بلدك عن التردد الى أطرافنا من الأحساء وقطيف وسواحل قطر كالزيارة وغيرها ، بل أمنعهم السفر عن كل بلد أنالهم فيها . » وكان آنئذ سليمان بن محمد له اليد الطولى في أرض العرب لا سيما نواحي العراق مما يلي بلاد نجد وفي نجد نفسها وكذا أطراف الشام اذ معسكره كبير ودولته عظيمة وشجاعته معروفة وقومه الخوالة اهل بأس شديد وخلق عديد ، وكان يغزو نجداً ان لم يرضه حكامها كل واحد بشيء .

فلما وصل كتاب سليمان .. الى عثمان .. اهتم وكره عداوة سليمان .. وغضب أيضاً لخروج محمد بن عبد الوهاب عنه ، ولكنه ارتكب أخف المخذورين بإبداء المَعذرة لدى محمد بن عبد الوهاب فلقبه وقال له ان محاربة هذا الرجل « يعني سليمان .. » تصعب علينا أول الأمر ، وقد أكد القول بكيت وزيت .. فالرأي بعد هذا أن تسير من العينة على بركات الله الى أي بلد شئت من أرض الله وتقيم فيها سنة أو سنتين حتى نرى كيف يفعل الله بعد ذلك ثم مرجعك الينا .

فقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : لا نخش من هذا الكلام فان الله ناصر ك ، وان جميع المحاصيل التي تنجس عنك أنا اسلمها اليك كل عام ، ودع هذا الأمر

١ - في الأصل كلمات غير مفهومة جعلنا مكانها الكلمات الموضوعة بين قوسين .

يجري رغماً على أتف الكاره له !

لكن بعد ما بذل محمد بن عبد الوهاب النصائح لعثمان بن معمر أن يواظب على هذا الدين وترويجه ، عرف أن عثمان لا يمكنه الآن الاستقامة عليه ظاهراً ، فانتقل محمد بن عبد الوهاب من العينة الى بلد الدرعية - وقد تحدثنا ، في الفصول السابقة ، عن هجرة الشيخ الى الدرعية ومقامه فيها ومنعته وزعامته واشتراكه مع ابن سعود في تأسيس الدولة .